في الشمال الغربي للحجاز

تأليف

صلاح عبد القادر البكري



في الشمال الغربي للحجاز

تأليف:

صلاح البكري



رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية بعدن (١١٥٤) لعام ٢٠١٩

الطبعة الأولى: ٢٠١٩



دار الوفاق الحديثة للنشر والتوزيع - مصر

هاتـف وواتس آب: 00201008170225

بريدً إلكتروني: DARALWEFAQNET@GMAIL.COM



مقدمة

نحمده على ما أنعم ونصلي ونسلم على خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدراسة القديمة لشمال الحجاز وما نشأ فيه من حضارات دراسة ناقصة لسبب واحد؛ ذلك هو عدم اعتمادها على التفهم الدقيق للبيئة الجغرافية. أدرك هذا النقص بعض العلماء والباحثين فأخذوا يعدون المواد الهامة لدراسة التاريخ الواضح الكامل للحضارات العربية القديمة.

من هؤلاء الباحثين فريق اهتم بالنصوص العربية، وهي قلة قليلة، وفريق آخر اهتم بالنصوص اليونانية والرومانية وهي كثرة كثيرة، محاولين أن يستخلصوا مادة قيمة لرسم خريطة جديدة واضحة للمنطقة.

وأبرز المحاولات في هذا الصدد تلك المحاولة القيمة التي قام بها العلامة ألويس موسل أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة براغ وقد جمع كثيرًا من المواد التي

تتعلق بشمال الجزيرة العربية بعدة رحلات قام بها بين عامي ٩٦، ٩٨، ١٩١٥ مبتديا بالجزء الذي كان يعرف قديمًا باسم بلاد العرب. ولقد واجهته في خلالها متاعب جمة ومشقات مرهقة إذ اجتاز مناطق وعرة، الأمن فيها مفقود ولكن الأستاذ موسل تحمل ذلك كله خدمة للعمل وتشجيعًا لغيره من العلماء الباحثين.

لقد جمع الأستاذ موسل معلومات على جانب عظيم من الأهمية عن المنطقة الشمالية الغربية للحجاز، ورسم لها خريطة تخطيطية حديثة مبينًا عليها كل ما انتهى إلى علمه من أسماء المواقع والأماكن والبلدان. وقد ظهر مؤلفه باللغة الألمانية عام ١٩٠٧، وقام بترجمة الكثير منه الأستاذ عبد المحسن الحسيني. جزاه الله عنا خير الجزاء.

صلاح البكري

اهتمام وزارة المعارف السعودية بالآثار

منذ فترة غير بعيدة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية حفظه الله، أخذت وزارة المعارف تبدي نشاطًا محسوسًا حول الآثار القديمة وجمعها وصيانتها من التلاشي والاندثار وهذا - لا شك - مظهر من مظاهر الوعي الذي أخذ ينساح في الشعب السعودي العربي. والاهتمام بالآثار القديمة والعناية بصيانتها لا يخدم التاريخ فحسب، بل يشجع على استقطاب السياح والزوار ويبعث المتعة في نفوس العلماء والباحثين ويحفزهم على مواصلة البحث والكشف، وهي أي الآثار أقوى وسائل إيضاح للطلبة والطالبات.

يعتقد البعض أن الآثار القديمة تتركز في الجنوب العربي الغربي حيث قامت دول معين وسبأ وقتبان وحمير وأن المملكة العربية السعودية ليس لديها شيء من ذلك سوى قلة قليلة، والحقيقة ما لديها من ذلك كثرة كثيرة وهي تتركز في بقاع كثيرة من الأراضي السعودية، الواقعة

بين المدينة المنورة والأطراف الجنوبية الشرقية لخليج العقبة، وأيضًا تحتل مساحات محدودة في نجران. غير أن كثيرًا من تلك الآثار قد هاجمتها عوامل التعرية حتى فككتها وأصبحت أكوامًا من الأحجار والرمال؛ إذ كانت عرضة للعواصف الرملية والحرارة والبرودة والأمطار. ولا تزال هناك بيوت منحوتة في الجبال، وأحواض لحفظ الماء منقورة في الصخور.

لقد كانت المناطق الشمالية الغربية للحجاز موطنًا للأنباط ولحيان وقوم شعيب وأصحاب الأيكة «الشجر الكثيف الملتف» وعاد البائدة وثمود.

معظم هذه القبائل تركت خلفها آثارًا ومعالمَ، وهذه الآثار وإن كانت أقل من الآثار الموجودة في الجنوب الغربي، إلا أنها تلقي ضوءًا على تاريخ عرب الشمال الذين أثبتوا وجودهم بين الشعوب في العصور الواغلة في القدم.



القبائل الكبرى

من القبائل الكبرى التي كانت تقيم في الشمال الغربي للحجاز قبيلة ثمود. والكتّاب الأقدمون من اليونان والرومان يذكرون أسماء لقبائل مختلفة كانت تقيم في الساحل الشرقي للبحر الأحمر أو قريبة منه، منها: Thamudeni /Thamydenof /Thamyditai وهي اسم لقبيلة ثمود، وأجاثا رشيد يشير إلى ساحل صخري طويل للبحر الأحمر يمتد جنوبًا مسافة مائة الرحال يسكنه العرب الثموديون.

وفي معبد الغوافة الذي بنته قبيلة ثمود بين نهاية عامي ١٦٦ ميلادية وبداية عام ١٦٩م لذكرى الإمبرطور ماركوس أوروليوس أنطونيوس توجد نقوش تذكر أن ثمودا كانت في منتصف القرن الثاني الميلادي تملك حرة العوارض وحرة الرجاء، وكانت منازلهم تقوم إلى الغرب من تيماء وعلى مقربة من الطريق التجاري العظيم، الذي يصل بين الجنوب الغربي وبين سوريا ومصر.

وبطليموس في جغرافيته يذكر أن ثمودًا كانت تقيم في الجزء الشمالي الغربي للبلاد العربية، ويقول أورانيوس أن ثمودًا تقع على حدود المنطقة العربية النبطية.

فثمود كانت تقع على المنطقة المسماة ببلاد العرب الحجرية Arabia Patreasd ويذكر الطبري «ط د ي فوبة ٢١٥» أن ثمودًا كانت تسكن الحجر وما جاورها بين الحجاز والشام حتى وادي القرى.

ويذكر ابن الأثير في كتابه «الكامل» «ط تورنبرج ٢: ٣» كاهنة بالحجر، كانت تشد إليها الرحال من أقاصي البلاد.

ويذكر البكري في معجمه «ط فستنفد ص ٢٧٠» أن الحجر ديار ثمود وهي تقع بين الحجاز والشام.

والتوارة لا تشير إلى قبيلة ثمود ولكن القرآن الكريم يذكر أن قبيلة ثمود قد بوأها الله في الأرض واتخذت من الحجر مسكنًا لها تتخذ من سهولها قصورًا وتنحت من الجبال بيوتًا، فجاءهم صصالح رسولا من عند الله يأمرهم بعبادة الواحد القهار، وينهاهم عن الظلم والفساد في الأرض فقالوا: ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين، قال هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، ولا

تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم معلوم، فعقوروا الناقة فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

هذه القصة تتفق مع النقوش الموجودة بمعبد الغوافة، والبقعة المحيطة بالواحة (واحة الحجر) كانت ملكًا لقبيلة ثمود. وليس هذا فقط فالساحل جميعه كان ملكًا لهم أيضًا؛ لأن القبائل الساكنة على الساحل كان لابد لها من أن تعترف بسلطان ثمود.



عاد

مـن أكـبر القبائـل العربيـة القديمـة ورد ذكرهـا في القـرآن الكريـم وفي النصـوص القديمـة للمؤرخيـن الأقدميـن مـن اليونـان والرمـان، كان سـلطانها يمتـد مـن الشـمال الغربـي لشـبه الجزيـرة العربيـة إلـى الجنـوب العربـي الغربـي، فبطليمـوس في جغرافيتـه «٧ : ٧٢» أشـار إلـى الإقليـم الأول مـن أقاليـم بـلاد العـرب السـعيدة، هـذا الإقليـم هـو بنفسـه الإقليـم المعـروف باسـم جبـل إرم أو آرام والـذي يسـمى الآن «رمّ» «موسـل شـمال الحجـاز ص٥٧». في هـذه المنطقـة كانـت تسـكن قبائـل إرم وعلـى رأسـها عـاد.

ولبيـد يذكـر في «ديـوان لبيـد» «ط الخالـدي ص٢٥» قبائـل إرم وعـاد وثمـود الذيـن عصـوا أمـر ربهـم؛ فأهلكهـم الله بعصيانهـم، فقـد رأى لبيـد رفاتهـم في مقابرهـم القديمـة وقـد دثـروا بملابسـهم وجثمـوا في أفنيـة بيوتهـم.

يقول لبيد:

وَلقـد بلـتْ إرمٌ وعـادٌ كيـدهُ   ولقـد بلتـهُ بعـدَ ذاكَ ثمـودُ

خلـوا ثِيَابَهُـمُ عـلى عَوْراتِهِـمْ فَهُـمُ بأَفْنِيـةِ البُيُـوتِ هُمُـودُ
ولقد سَئِمتُ مِن الحياةِ وَطُولِهَا وِسُؤال هـذا الناس كَيْف لَبيدُ

وهنـاك نـص لأبي شـامة يـورده في كتابـه (الروضتـين في أخبـار الدولتـين) ط القاهـرة ١٢٨٧/ ١٢٨٨ ص ٧ جـ ٢ ص ٧) يقـول: إنـه في الفـترة التـي كان يحتـل فيهـا الصليبيـون حصـن الكـرك والشـوبك، كان الجنـدي المصري يقيـم عسكره عنـد جبـل إرم أثنـاء مـرور الحجيـج مـن أيلـة إلى مكـة، يقيـم العسـكر عـلى أيلـة ليلـة وعـلى إرم ليلـة وقاطـع إرم ليلـة).

كان الجيـش المـصري إذن يتـولى دفـع الهجـمات التـي كان يشـنها الصليبيـون عـلى الحجيـج، إذ كانـوا يخرجـون عليهـم مـن وادي اليتـم ووادي المـبرك. ففـي هذيـن الواديـن كانـت تمـر الطريقـة الآتيـة مـن إرم وكانـت تفـضي إلى طريـق الحجيـج مـن أيلـة إلى المدينـة المنـورة.

ويذكـر القزوينـي في كتابـه (عجائـب المخلوقـات) ط القاهـرة ١٣٢١ ص ٢٢٤ أن عـادًا قـد كانـت لهـم مسـاكن في ذروة الجبـل المعـروف بجيـش إرم في أرض قبيلـة طـي، ويقـال: إنـه توجـد هنـاك نقـوش فـوق الأحجـار، وإن المسـاكن والنقـوش قـد عبثـت بهـا عوامـل التعريـة إذ كانـت عرضـة للعواصـف الرمليـة

والصقيع وإن كثيرًا من هذه الآثار يمكن رؤيته في المنطقة التي تجاور جبل إرم.

وفي سفر الأيام الثاني (٩ : ١٤) نجد: كان ملوك العرب يحضرون إلى سليمان الذهب والفضة اللذين كانا ينقلان من الجنوب العربي الغربي عن طريق القوافل. وليس من شك أن هؤلاء الملوك كانوا يقيمون إلى الجنوب من فلسطين، والوثائق الآشورية تشير كذلك إلى وجود ملوك من العرب في شبه جزيرة سيناء.

لعل سائلاً يقول: الثابت في القرآن الكريم والمعروف تاريخيًا أن موطن عاد كان في الأحقاف بالجنوب العربي، فكيف نجدها في الشمال الغربي للحجاز؟؟

الجواب: أن عادًا التي كانت منازلها في الجنوب العربي، هي عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، ويقال عاد الأولى، أما عاد التي نزحت إلى الشمال فهي عاد بن معاوية بطن من عاد الأولى وهم بنو بكر بن معاوية بن بكر بن عاد بن عوص، وهؤلاء يقال لهم عاد الأخرى، وسموا عادًا باسم أبيهم الأول. هؤلاء بقوا بعد هلاك عاد[1]. هاجرت عاد الأخرى مع الموجات المهاجرة إلى الشمال عام

(١) عمر رضا كحالة (قبائل العرب القديمة والحديثة) ص٧٠٠، ٧٠١.

٢٠٠ ق. م وقد حملت معها كل ما تملكه من أشياء ثمينة، حملت معها آلهتها وأولها الإله (القمر) وليس هذا فقط فقد حملت كذلك خطها الذي اشتقت منه سائر الأقلام ومنه القلم الفينيقي وطبعت تلك الأراضي الواسعة التي حلت بها بهذا الطابع السامي، ولم تتوقف عاد الأخرى في هجرتها إلى شمال الحجاز بل تجاوزت ذلك شمالاً وغربًا. ففي المتحف البريطاني بلندن قطعة من الجرانيت كانت شاهدًا لقبر؛ عثر عليها في جزيرة كريت في اليونان، وقد كتب عليها بالخط المسند وطبق القاعدة المتبعة في الكتابة المعينية ما لفظه «نفس وقبر» ثم اسم صاحب القبر، ويقول مدير القسم الشرقي في ذلك المتحف: أن نصوصًا معينية أخرى عثر عليها في تلك الجزيرة، ويوجد في المتحف كذلك ختم من الأحجار الكريمة يعود إلى القرن التاسع ق.م قال المدير: إنه أقدم ختم عرفه المتحف البريطاني وعليه صورة رجل على رأسه تاج ويرتدي الملابس العربية، ونقش حول الصورة اسم صاحبها، وقد كتب الشطر الأول من الاسم على الطريقة العكسية وهي طريقة سبئية تعود إلى القرن السابع ق. م. وهذا الختم هو نفس الختم الذي نشره العالم الأثري «البريت» «سنة ١٩٥١ في مجلة المدارس الأمريكية للدراسات الشرقية» وقد ذكر البرايت

أن ذلك الختم اكتشفه رئيس اتحاد معاهد العلوم الإسرائيلية بالقدس، الذي صرح بأنه عثر على الختم في مكان يسمى (تل الخليفة) بالعراق من آثار الكلدانيين التي كان يسيطر عليها المعينيون في ذلك الوقت[1].



(١) شرف الدين ص٥٩ – ٦٠.

سبأ

جاء ذكر سبأ في التوراة وفي المخطوطات القديمة بالشين «شبأ Sheba»، وفي سفر أيوب «٦: ١٩» وردت إشارة إلى ذكر قوافل سبأ وتيماء، تلك القوافل التي كانت تقدم من الجنوب العربي الغربي وتتجه إلى الشمال لسوريا ومصر وفلسطين، حاملة كل مرتخص وثمين من ذهب وأحجار كريمة وتوابل وبخور.

هذا الطريق التجاري العظيم هو العامل الرئيسي لازدهار مدن وواحات المناطق الشمالية الغربية للحجاز.

كان التنافس على هذا الطريق التجاري شديدًا بين السبئين والمعينيين، فكان تارة في أيدي السبئيين وطورًا آخر في أيدي المعينيين، كانت الدولتان تتسابقان على السيطرة على المدن والواحات التي كانت تمر بها القوافل.

في واحات الحجر والعلا وتيماء وغيرها من الواحات كانت تقيم طائفة من حكام الجنوب، وكانت تقيم معهم حامياتهم وعدد كبير من التجار وأرباب الحرف، كانت

هـذه الواحـات مـوردًا للكسـب لسـكان الواحـات وأيضًـا للقبائـل التـي كانـت تقيـم عـلى مقربـة منهـا. نشـأت في شـمال الحجـاز ثلاثـة عنـاصر وافـدة مـن الجنـوب العـربي:

١- الحكام وحامياتهم.

٢- التجار.

٣- أصحاب الحرف والمهن.

كان هـؤلاء الوافـدون يقدمـون للسـكان الأصليـين مـا يحتاجـون إليـه مـن الغـذاء والكسـاء ؛فتكونـت مـن أجـل ذلـك سـلطة الوافديـن عـلى السـكان الأصليـين.

كانـت واحـة ديـدان هـي المقـر الرئيـسي للنفـوذ السـبئي في شـمال بـلاد العـرب، وواحـة ديـدان مذكـورة في التـوراة باسـم «ددان» وتقـع قريبًـا مـن واحـة العـلا.

والحاكـم السـبئي ايتـمارا هـو الـذي أرسـل الجزيـة إلى سرجـون الثـاني قبـل عـام ٧٠٧ ق.م. وجـاء في سـفر «حزقيـال ٢٧: ٢٢» إن التجـار السـبئين كانـوا ينقلـون أجـود أنـواع البلسـم ومختلـف أنـواع الأحجـار الكريمـة، كانـوا ينقلونهـا إلى أسـواق صـور.

وجـاء في سـفر يوئيـل «٣: ٨» «أن اليهـود كانـوا يبيعـون الرقيـق إلى السـبئيين».

يذكر بعض المؤرخين القدامى أن سبأ قد سميت باسم مؤسسها الأول «عبد شمس سبأ»، الذي ينتمي نسبه الأعلى إلى عابر أحد أحفاد نوح، وأن عبد شمس هذا هو الذي غزا بابل وخراسان وأرمينيا وبنى بعض مدن مصر وقنطرة طنجة، ثم عاد إلى اليمن ومعه الكثير من الأموال وبنى سد مأرب وسمي سبأ؛ لكثرة سبيه.

هذه المعلومات لا تستند على أساس علمي يمكن الاعتماد عليه، فهي من القصص المنمقة التي يقصها لنا بعض المؤرخين، فالتاريخ لم يسجل غزوًا من الجنوب العربي في العصور القديمة لا لبابل ولا لأرمينيا ولا لمصر، كما أن النقوش العربية الجنوبية التي استند عليها أولئك المؤرخون بأن الذي بنى سد مأرب ليس هو مؤسس الدولة السبئية في تاريخ سابق على عام «٨٠٠ ق.م»، والحقيقة أن الذي اشترك في بنائه حكام سبئيون حكموا بين عامي «٦٦٠ و ٦٤٠ ق.م».

والنقوش تذكر أن أقدم إشارات إلى السبئيين لم ترد إلا في نقوش آشورية – أي عربية شمالية تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، ففي الأخبار المنقوشة عن حملة تجلات باصر

الثالث «٧٤٥- ٧٢٧ ق.م» على شمال البلاد العربية نجد ذكر السبئيين بين القبائل التي قدمت ولاءها لذلك الملك.

وهناك نقش قديم يعود إلى عهد سرجون الثاني «٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م» إذ ذكر في جملة القبائل التي أخضعها أو الملوك الذين ضرب عليهم الجزية «يثعمر السبئي»، وهذا نص النقش «وضعت الجزية على بثعمر السبئي، وأخذت حاصلات الذهب من جبالهم والخيول والجمال»[١]



(١) ريدان ص١١٣، ١٣٧ وجواد علي ج٢ ص١٢٤.

مدائن صالح

وردت أسماء كثيرة لمدائن صالح أو الحجر في كتب كثيرة لكتاب قدامي، منها Haegra, Egra, Hagra, Hegra وكل هذه الأسماء تدل على اسم مدينة أو منطقة واحدة هي مدائن صالح، ولا شك أن اختلاف الأسماء حول شيء واحد دليل قاطع على الأهمية والإعجاب اللذين يبديهما العلماء والباحثون إزاء تلك المنطقة. ولعل التراث العلمي هو الدافع لذلك الاهتمام والإعجاب، فمدائن صالح أغنى منطقة أثرية في المملكة العربية السعودية، فـ (استرابون) في جغرافيته يذكر أن: «إليوس في عودته من الجنوب العربي مر بصحراء كثيرة العيون عند مجلة الحجر» «١٦ – ٤ : ٢٤».

وبليني يذكر نفس المدينة في كتابه «التاريخ الطبيعي» «٦ : ١٥٧» باسم (Haegra) أو (Hegra)، وبليني قد جمع مؤلفه هذا من مقتطفات عديدة من الكتب القديمة، فليس من الغريب أن نجد فيه نصوصًا متباينة عن مدينة واحدة، ولا أن يكتب اسمها بطرق مختلفة.

والجزء الشمالي الغربي من بلاد العرب السعيدة (Arbia Felix) الذي يتكلم عنه بليني في كتابه، لم يكن يضم في عهده أية مدينة سوى مدينة الحجر.

وبطليموس يذكر في جغرافيته ٦ (٧: ٢٦) اسم مدينة إجرا (Egra) بين اسمي سواكا (Suaka) وسلمى (Salma)، وسواكا هي هذه الأطلال الموجودة بالواحة التي تسمى الآن باسم (شواق) وتقع على مسافة قدرها أربعون ومائة كيل إلى الغرب من الحجر.

وسلمى هي المعروفة حاليًا بأبي سلامة، وتقع على مسافة قدرها ستون كيلا إلى الغرب، كذلك ويذكر الطبري (ط د ي غوبة ٢١٥) أن ثمود كانت تسكن الحجر وما جاورها بين الحجاز والشام حتى وادي القرى.

ويذكر ابن الأثير في كتابه «الكامل» (ط تومبرج ٢: ٣) كاهنة بالحجر كانت تُشد إليها الرحال من أماكن نائية، ولما مر رسول الله ﷺ في غزوة تبوك نزلها واستقى الناس من بئرها فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: «**لا تشربوا من مائها شيئًا ولا تتوضأوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فأعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئًا**».

«الطبري» تاريخ (ط د ى غوبة والواقدى محمد ط فلهوزن ص ٣٩٧ وابن هشام السيرة ط فيستنفلد ٨٩٨).

ويذكر الإصطخرى.. المسالك (ط د ى غوبة) أن الحجر محلة صغيرة قليلة السكان وهي من وادي القرى على مرحلة في وسط خور منعزلة تعرف بالأثالب وفيها ديار ثمود.

وكانت الحجر في زمن المقدسي عام ٩٨٥م جونًا صغيرًا به عدد من العيون والنخيل والبساتين (أحسن التقاسيم) «ط د ى غوبة ٨٤»، وعلى مسافة غير بعيدة يقوم مسجد النبي صالح وهو منقور في الصخر وحوله عدد من المنازل الغريبة التي يسكنها أهل ثمود وأبوابها مزينة بالرسوم والنقوش.

ويذكر البكري في كتابه (معجم ما استعجم) (ط فيستنفلد ص ٢٧٠) أن الحجر ديار ثمود وهي تقع بين الحجاز والشام.

وتحدث الإدريسي في كتابه (نزهه المشتاق في اختراق الآفاق) الإقليم الثالث الجزء الخامس تحدث عن الحجر فقال: إن الحجر حصن تسكنه الأشباح يقع على مرحلة من وادي القرى بها بيوت منقورة في الصخر، وأهل الحجر

وتلك النواحي يسمونها الأثالب، وبها كانت ديار ثمود، وبالقرب منها عين والمحيطة بها رمل وأحجار يصعب زراعتها. ومن الحجر إلى تيماء أربع مراحل، وكذلك من تيماء إلى خيبر وإلى دومة الجندل.

ويذكر ياقوت في معجمه (٢: ٢٠٨) أن الحجر هو اسم لمنازل ثمود في وادي القرى بين المدينة والشام وفي أواخر عام ١٣٢٠م زار ابن بطوطة الحجر شاهد عينا وهو يصف في إعجاب منازل ثمود المحفورة في الصخر الأحمر ولها معارج عليها يظهرون، وكانت هذه المنازل محفورة كما لو كانت حديثة البناء، وفي داخل المنازل تظهر بقايا كثيرة من العظام، وبين صخرتين يوجد فج الناقة الذي خرجت منه ناقة صالح وقد رأى هناك آثارَ المسجد الذي كان يصلي فيه صالح. (تحفة) ط د يفريمرى ومنجونيتي ص ٢٥٩) ويذكر محمد أديب في كتابه (المنازل) (ط استتبوا ١٢٣٢ هـ ص ٧٩) أن الحجر كانت تعرف بمدائن صالح أو قرى صالح أو عدال وهي تقع على مسافة تسع عشرة ساعة من الدار الحمراء ويقال إنها كانت في وقت ما ملكا لثمود. والمساكن في مدائن صالح

عظيمة منحوتة في الصخر، ولا يسكنها أحد وهناك حصن وبركة للماء تُملأ من العين الكبيرة المحفورة في الحصن، والماء في العيون الأخرى لا يصلح للشرب، وغير بعيد منها يظهر الجبل المعروف باسم (انان) وفي مرتفع منه يوجد مسجد صالح وهو منقور في الصخر وفي كل مكان أطلال للمباني التي شيدتها ثمود. وكان الحجاج في زمن محمد أديب حوالي عام ١٧٧٣م يمكثون بها يومًا كاملاً؛ إذ كانوا يدفعون هناك أجور من يحملون لهم الخيام ويوزعون فيهم الهدايا.



الحجر بها قبور لا بيوت

كثير من الناس يعتقدون أن بالحجر بيوتًا لا قبورًا؛ وهذا الاتجاه يرجع إلى كثير من المؤرخين كانوا يصغون إلى الروايات التي يسمعونها من الناس ومن ما يتوارثه الخلف عن السلف من قصص. هذا اللون من التاريخ كثيرًا ما يُصدم بالأدلة المادية التي يكتشفها علماء الآثار، وإني لأذكر أني حين كنت أقوم بتدريس تاريخ مصر القديم بمدرسة محمد علي الثانوية بالقاهرة جاءتنا نشرة من وزارة التربية والتعليم بتعديل بعض الموضوعات بناء على ما اكتشف من آثار تتصل بتاريخ الأسرة الثانية.

وبعض الكتاب يسجلون في مؤلفاتهم كل ما يسمعون من قصص وروايات دون أن يتأكدوا من صحة ما يروى لهم، ولعل خير مثال لذلك ما جاء في كتاب (معجم ما استعجم) للبكري.. روى الكلبي عن رجاله عن الأصبغ بن نباتة قال: كنا عند علي بن أبي طالب في خلافة عمر فسألوا رجلاً من حضرموت، أعالم أنت بحضرموت؟ قال: إذا جهلتها فما أعلم غيرها.

قال: أتعرف موضع الأحقاف؟

قال: كأنك تسأل عن قبر هود.

قال: نعم.

قال: خرجت وأنا غلام في أُغَيْلمة من الحي نريد أن نأتي قبره لبعد صيته فسرنا في وادي الأحقاف أيامًا وفينا من قد عرف الموضع، حتى أتينا إلى كثيب أحمر فيه كهوف فانتهى بنا ذلك الرجل إلى كهف منها، فدخلناه فأمعنا فيه وانتهينا إلى حجرين قد أطبق أحدهما على الآخر وفيه خلل يدخل منه النحيف متجانفًا فرأيت رجلاً على سرير شديد الأدمة كثيف اللحية قد يبس على سرير، وإذا لمست شيئًا من جسده وجدته صلبًا وعند رأسه كتابة بالعربية «أنا هود الذي آمنت بالله وأسفت على عاد لكفرها، وما كان لأمر الله من مرد».

فقال علي: كذلك سمعت من أبي قاسم ﷺ.

وهناك مثال آخر لمبالغة القصاص فيما يروون ورد ذكر (برهوت) في بعض الكتب العربية ذكرها القزويني في كتابه (عجائب المخلوقات) «قال: تقع بئر برهوت على مقربة من حضر موت، وقد قال النبي ﷺ: إن أرواح الكفار والمنافقين تسكن فيه وهو من أيام عاد، وقيل إن

عليا كرم الله وجهه قال: إن أكره بقعة في الأرض عند الله هو وادي برهوت وبها بئر كريهة الرائحة وماء آسن حيث تسكن أرواح الكفار». وقال المسعودي في كتابه (مروج الذهب): «تقع بئر برهوت في بلاد (أسفار؟) وحضر موت وهي جزء من بلاد الشجر – كذا – بين اليمن وعمان ويسمع لها صوت الرعد على بعد أميال وتقذف أكوما من الحمم يسمع لها أزيز مرعب».

«وقال الأصمعي: حدثني حضرمي فقال: كلما شممنا رائحة خبيثة في إقليم برهوت علمنا بعد ذلك أن شخصية كبيرة من الكفار قد ماتت».

فهذه الروايات كلها من أخبار القصاص لاحظ لها من الصحة، وهي بعيدة كل البعد عن الحقيقة.

وفي صيف عام ١٩٤٩م ذهبت إلى حضر موت لمشاهدة المناطق الأثرية في (ريبون) ودفعني حب الاستطلاع لمشاهدة بئر برهوت والدخول في هذا الكهف فوجدته كهفًا جيريًا ليس به أثر بركاني، وأما الروائح الخبيثة التي تنبعث منه فهي ليست ناجمة عن الكبريت بل تحلل الصخور وبول الخفافيش، والحرارة الموجودة داخل برهوت ليست نتيجة عوامل بركانية ولكن من تأثير الحرارة الخارجية.

وأحسن وصف لبرهوت هو ما جاء في كتاب (Hadramout) للعالمين (van Der Mullen) فان درمولين و(Weismann) وويزمان، فقد رحلا إلى حضر موت عام ١٩٣٠ ودخلا برهوت وشاهدا كل ما بداخلها وكان معهما الآلات العلمية اللازمة وفانوس؛ ليختبرا به الهواء عما إذا كان به كمية وافرة من الأكسجين.

ويُعتبر وصفهما لهذا الكهف الأثري أول وصف مبني على المشاهدة والواقع.

فكل ما قيل عن برهوت في الكتب القديمة بعيد عن الحقيقة كل البعد.

لا شك أن الأدلة المادية والمشاهدة العلمية من أقوى الأدلة لإثبات الحقيقة.

والجماجم البشرية والعظام التي وجدها بعض علماء الآثار الغربيين داخل مقابر قوم صالح في الحجر خير دليل قاطع على أن تلك البيوت المنحوتة في الجبال هي للأموات لا للأحياء، وربما كانوا يضعون الأدوات التي كان يستعملها أؤلئك الأموات في حياتهم فقد كانت هذه العادة معروفة لدى السبئيين والقطبانيين والحميريين كما هي عادة قدماء المصريين.

وحين كنت في الجنوب العربي باحثًا عن الآثار عثرت على مقبرةٍ قديمةٍ في شُكُع (بضم الشين والكاف وسكون العين)، وشكع قرية صغيرة تقع على قمة جبل علي مقربة من (حَلّه) مبنية على أنقاض قرية قديمة، وشاهدت كتابة حِمْيَرية على بعض أحجار أساس أحد البيوت وعلى مقربة من أحد المنازل يقوم تلٌ كبيرٌ دفعني حب الاستطلاع للبحث في جانب من جوانبه، وأثناء الحفر عثرتُ على مقبرةٍ قديمةٍ بها مبخرة وأواني من البُرنز وطبق من الخزف الأحمر المصقول والمعمول بطريقة تدل على ذوقٍ جميلٍ، يُعتقد أنه قد استعمل في العهود الأولى، ويُستدل من طريقة صنعه وصقله أن ثمة علاقة تجارية كانت موجودة بين هذا الجزء من العالم وكل من فلسطين ومصر خلال أواخر العصر الجليدي الأول والثاني في الفترة الواقعة ما بين سنة ١٠٠٠ وسنة ٦٠٠ قبل الميلاد.

ومن بين المكتشفات إبريق من الخزف سليم خال من الصور لأي نوع من المخلوقات، ولم أجدْ عليه اسمَ صانعه، وهذا يدل على أن صناعة الإبريق ترجع إلى ما قبل الميلاد؛ لأن عادة كتابة اسم صانع الخزف على الفخار قد انتهت حوالي عام ٧٠ قبل الميلاد.

والجدير بالذكر أن لكل مقبرةٍ في مدائن صالح بابًا واحدًا يغلق من الداخل وليس لها أي فتحة يدخل منها الضوءُ والهواءُ، فإذا فرضنا أن تلك الأماكن المنحوتة في الصخر بيوت للسكن فكيف كان يعيش أؤلئك الناسُ في بطون جبال لا يتجدد فيها الهواء ولا ينفذ إليها الأكسجين؟، كيف كانوا يتحملون ارتفاع درجة الحرارة عندما يغلقون الأبواب وخاصة في الصيف؟

أما النقر التي بها يغلقُ باب البيت من الداخل فذلك لا ينهض حجة في الموضوع، وإذا كانت الأبواب تغلق من الداخل فذلك قد يكون دليلاً على شدة حرص القوم على بقاء أضرحة موتاهم بعيدةً عن أيدي لصوص المقابر، وهؤلاء اللصوص كانوا منتشرين في الجنوب العربي واليمن ومصر، فقوم صالح ربما كانوا يغلقون أبواب قبورهم من الداخل بطريقة بارعة بحيث لا يستطيع اللصوصُ الاهتداءَ إلى فتحها بسهولة.

والبيوت التي نحتها قومُ صالحٍ من الجبال (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين) «الحجر»، ربما كانت على مقربة من تلك المقابر، فلما كذب أصحابُ الحجر رسولهم صالحا، أخذتهم الصيحةُ فلمْ تبقِ لهم مما نحتوا ومما بنوا

وممـا كسـبوا شـيئًا يغنـي عنهـم، ويدفـع البـلاء مـن حولهـم.

يقـول العلامـة، الشـهيد، الأسـتاذ سـيد قطـب، في الجـزء الرابـع عـشر مـن تفسـيره: «وهـا هـم أولاء قـوم صالـح تأخذهـم مصبحـين وهـم في ديارهـم الحصينـة آمنـون فـإذا كل شيء ذاهـب، وإذا كل وقايـة ضائعـة، وإذا كل حصـين موهـون، فـما شيء مـن هـذا كلـه يواقيهـم مـن الصيحـة، وهـي فرقعـة ريـح وصاعقـة تلحقهـم فَتُهلكهـم في جـوف الصخـر المتـين».

فالمدينـة التـي نحتهـا قـوم صالـح مـن الجبـال – وهـي لا بـد أن تكـون قريبـة مـن تلـك المقابـر – ربـما طغـتْ عليهـا الرمـال بعـد الصيحـة التـي أخـذت القـوم، فذهبـت بـكل مـا نحتـوا ومـا بنـوا ومـا كسـبوا.

وبطليمـوس نفسـه يـرى أن مدينـة حجـر دُفِنَـت تحـت الرمـال كـما دُفِنَـت مدينـةُ (تمنـه) عاصمـة قطبـان التـي بنيـت منـذ أكثـر مـن ألـف عـام قبـل الميـلاد، واكتشـفتها بعثـة فيلبـس عـام ١٩٥١ عـلى عمـق ثلاثـين قدمًـا تحـت سـطح الأرض.

وقدمـاء المصريـين كانـوا ينحتـون مـن الجبـال بيوتًـا منـذ أكثـر مـن أربعـة آلاف سـنة لحفـظ جثـمان ملوكهـم، وأهرامـات خوفـو وخفـرع لا تـزال في الجيـزة تتحـدى عوامـلَ التعريـة بـكل فخـرٍ واعتـزازٍ وتتحـدث عـن مجـد الفراعنـة وسـلطانهم في الأرض.

المدن القديمة:

تحدث بطليموس في جغرافيته (٦: ٧: ٢٧) عنْ عددٍ كثيرٍ من المدن والقرى تقع في بلاد العرب السعيدة (Arabia Felix) المعروفة الآن باسم الحجاز، وأسماء المدن هذه لم تكن تدل في كثير من الأحيان إلا على أهم الآبار والعيون.

ومن المعروف أن كثيرًا من المدن في العالم وخاصة في المناطق الصحراوية لم تقم إلا على نهر أو بحر أو عيون فياضة.

من هذه المدن التي سطع نجمها في التاريخ القديم:

مدين:

جاء في السيرة لابن هشام (طفيستنفلد ص ٩: ٩٩٤) إن رسول الله ﷺ بعث زيدَ بن حارثة نحو مدينَ فأصاب سبيًا من أهل ميناء، وهي السواحل وفيها جماع من الناس، وفرضة مدين تقع عند مصب وادب قيال. وعبارة ابن هشام لا توضح لنا إذا كان زيدٌ في غزوته هذه قد وصل إلى مدينة مدين التي تبعد عن الميناء حوالي ثلاثة وأربعين كيلاً.

ويقول «ابن خرداذبه» في كتابه (المسالك ط د ى غويه ١٧٧) :الفرع وذا المروة ووادى القرى ومدين وخيبر ضمن أعراض المدينة المنورة.

ويذكر اليعقوبي في كتابه (البلدان ط د ى ص ٣٤١) : «كان يعيش في مدينة مدين القديمة أخلاطٌ من الناس، وكانت لهم الأجنةُ والبساتين والنخل وكانت بها العين الكثيرة والأنهار العذبة». ويذكر الهنداني في صفة جزيرة العرب (طمولرص ١٢٩) يذكر مدين أرض قبيلة جذام.

وياقوت في معجمه (طفيستنفلد) ذكر عن مدين الشيء الكثير فهو يروي عن أبي زيد البلخي (المتوفي في عام ٩٣١م) «إن مدين تقع على بحر القلزم محاذية لتبوك على ست مراحل منها وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى لغنم شعيب».

ويقول القزويني في كتابه عجائب المخلوقات (طفيستنفلد ج ٢ ص١٧٣): إن مدين سوق تبوك، وهي تقع بين المدينة والشام وفيها البئر التي استسقى منها موسى لغنم شعيب وقد بلغه أن هذه البئر قد طُمِست وأن بيتًا قد بُني فوقها وإليه يأوي الحجاج.

وفي أوائل القرن الخامس عشر نجد أن مدينة مدين التي كانت مشهورةً بالحركة والنشاط التجاري قد أصبحت قريةً صغيرةً، وتلك المباني الضخمة التي يذكرها المقريزي هي مقابر النبطيين وقد نُحتَت من الجبال المجاورة. وحاجي

خليفة في كتابه (جهان نما) القسطنطنية ١١٤٥هـ ص ٥٢٥) يصف مدين فيقول: «إن مدين أطلالٌ على ساحل البحر، تقع على ستة مراحل إلى الغرب من تبوك، ويقول: «إن هناك في الوادي صفائح من الحجارة عليها نقوش وأسماء لملوك عديدين». ويرى موسل أن هذه الصفائح ذات النقوش التي يشير إليها حاجي خليفة هي من البقايا التي تساقطت من حوائط المقابر وواجهاتها، والتي تشاهد عليها بقايا النقوش النبطية في أماكن متعددة.

قبيلةُ مدين:

يرى موسل (شمال الحجاز ص٧٥) أن البقعة التي كانت تسكنها قبيلةُ مدين تقع في المنطقة المجاورة لواحة البدع، وتقول :التوراة إن أهل مدين ينحدرون من نسل إبراهيم من زوجته قطورة، وكذلك الوثائق الآشورية تشير إلى ذلك. ووفقًا لما ورد في التوراة والقرآن الكريم فإن موسى قد رُبِي في بلاط ابنة فرعون، ثم فعل فعلته فقتل أحد رجال فرعون، فلما علم أنه مهددٌ بالقتل فر لا من مصر فقط ولكن من بقية الأراضي المتاخمة لحدودها كذلك، والتي كان يمتد إليها النفوذ المصري.

ويرى موسل أن موسى قد فر من مصر في بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد. ويقول موسل: إنه في هذا الوقت كانت فلسطين بأجمعها وجزء من سوريا خاضعة لمصر، وكانت القوات المصرية تقوم بحراسة الطرق الرئيسية في شبه جزيرة سيناء وكان على رؤساء القبائل المقيمة في سيناء أن يسمعوا ويطيعوا لرجال مصر.

تبوك:

جاء في جغرافية بطليموس (٧: ٢٧) لفظة (Thapaua) تباوا، وموسل اعتبر هذه اللفظة تحريفًا للفظة تبوكا (Thapaugua) أو تبوك.

ويذكر البلاذري في كتابه (فتوح البلدان) (ط د ى غويه ص ٥٩) أنه في عام ٩هـ وصل الرسول ﷺ إلى تبوك في جيش من المسلمين فصالحه أهلها على الجزية، وبعد عشرة أيام تقريبًا عاد إلى المدينة فتبوك كان يسكنها قوم من أهل الكتاب.

وابن هشام يذكر (السيرة طفيستنفلد ١: ٩٧) مساجدَ الرسول ﷺ التي بنيت في تبوك وفي وادي القرى وفيما بين هذين المكانين هي مسجد بثنية مداران، ومسجد بذات الزراب، ومسجد بالأخضر، ومسجد بذات الخطمي، ومسجد بألاء، ومسجد بطرف البتراء، من ذنب كواكب،

ومسجد بالشق، ومسجد بذي الجيفة، ومسجد بصدر حوصي، ومسجد بالحجر، ومسجد بالصعيد.

ومعظم هذه المساجد قد انهارت لضعف بناءها، ولتعرضها لعوامل التعرية وربما بُنِي على أنقاضها مساجد جديدة، والبعض الآخر أصبحَ أطلالًا كمسجد المداران ومسجد الحوصي. والمقدسي يذكر في كتابه» أحسن التقاسيم» (ط د ى غوية ص ١٧٩) إن تبوك كانت في القرن العاشر الميلادي مدينةً صغيرة بها مسجد للرسول ﷺ.



العلا:

ددان أو ديدان اسمٌ قديمٌ يرجع إلى عصر ما قبل القرن السادس الميلادي، كان يُسْتعمل للواحة المسماة بهذا الاسم والتي تُعرف حاليًا باسم العلا. تقع هذه الواحةُ على الطريق التجاري الرئيسي الواصل بين الجنوب الغربي لبلاد العرب وبين سوريا ومصر، وكان يتفرع من هذا الطريق عند هذه الواحة طريقٌ آخر عظيم، كان يمرُ على حدود الحافة الجنوبية لرمال صحراء النفود في قلب الجزيرة العربية إلى الخليج العربي ونابل، ووفقًا لنقوش ديدان فإن ملوك الجنوب الغربي لشبة الجزيرة العربية كانوا يسيطرون على الطريق التجاري العظيم.



سكانُ الواحةُ

كان سكانُ واحة ديدان يتألفون من طائفتين:

أولهما: من أهل البلاد الأصليين.

الثانية: هي الجالية السبئية التي هاجرت من الجنوب العربي الغربي. وكانت التجارة في أيدي هؤلاء الوافدين، وموسل يرى أن واحة ديدان كانت إبان العهد الآشوري خاضعةً للملوك السبئيين ويحدثنا سفر حزقيال (٢٧: ٢٠) «بأن ديدان كانت تبيع إلى صور طنافس الركوب». وأمثال هذه الطنافس تصنع إلى اليوم في واحات العلا وخيبر وحائل من جلود الماعز ذات الشعر الأسود الناعم الطويل تُدبغ حتى تصيرَ ناعمةً ثم تُحلى وتُعمل لها الحواشي، وتُوضع بعد ذلك على سرك الحصان أو الجمل.

وفي نقوش الجنوب العربي الغربي التي اكتشفت، نجد ذكرًا لديدان على أنها مكان يستورد منه خدم المعابد، وليس منْ شكٍ ازدهار ديدان وتألق نجمها بين مدن شمال الحجاز؛ يرجع إلى وقوعها على الطريق التجاري العظيم،

ولما انتقل الطريق التجاري إلى الشرق من واحة ديدان خمدت الحركة الاقتصادية، وعم الكساد فاختفت هذه الواحة من الوجود، وأصبحت المدينة القديمة (ديدان) أطلالاً ونشأت على مسافة ثلاثة كيلات منها إلى الجنوب الغربي محلة أخرى كانت تسمى باسم (القرح) ثم سُميت بعد ذلك باسم العلا.

يقول ياقوت في معجمه (طفيستنفلد ٢- ٦٣٩): إن ديدان اسم لمدينة تقع على الطريق بين الحجاز والبلقاء، وكانت في وقتٍ ما في أوج عظمتها وازدهارها ولكنها اليوم أصبحت أطلالًا وأكوامًا وهناك أطلال معروفة باسم (الخريبة) الموجودة إلى الشمال الشرقي من واحة العلا كانت تسمى فيما مضى باسم (ديدان) وهذه الصيغة (ديدان) التي تسجلها الترجمة السبعينية هي التي يذكرها ياقوت في معجمه (طفيستنفلد ٣: ٦٣٩) حيث يذكر أن ديدان هذه اسم لمدينة تقع على الطريق التجاري العظيم بين الحجاز والبلقاء كانت في وقت ما مزدهرة عظيمة العمارة ولكنها الآن أطلال. وفي (الخريبة) توجد كتابات وقطع الفخار.

وإلى الجنوب من الوجه على الضفة الجنوبية من وادي حمض، توجد بقايا يُظَن أنها هيكل روماني. ولا تزال بعض

الدرجات في معظمها سليمة، إلا أن أحجار الجص المحفورة حفرًا دقيقًا غدت تُسْتعمل كعلاماتٍ للقبور، وهناك مناطق أثرية أخرى تقع إلى الشمال الغربي للحجاز منها.

على ساحل البحر الأحمر وعلى بعد ستة مراحل إلى الغرب من تبوك تقوم أطلال مدين، وعلى مقربة من هذه الأطلال توجد صخرة كبيرة يُقَال إنها هي التي انبثق منها الماء بأمر موسى عليه السلام، وتوجد في الوادي هناك أسوار صخور عليها نقوش أو حروف كُتِبَت بصورةٍ بِدائية لأسماء ملوك. وعلى قمة الجبل المعروف (بجيش أرم) توجد نقوش على الأحجار بعضها لا يزال محتفظًا بشكله البدائي على الرغم من تعرضه للحرارة والبرودة والعواصف الرملية والأمطار. وفي هذه المنطقة التي تجاور جبل إرم يوجد المكان الذي يقوم عليه (حور بعل)، الذي ورد ذكره في العهد القديم والذي كان يسكنه العرب.



قبائل شعيب

يحدثنا القرآن الكريم أن شعيبًا أتى أهل مدين أو أصحاب الأيكة فنهاهم عن عبادة الأصنام، كما أمرهم أن يقيموا الوزن بالقسط ولا يخسروا الميزان، فلما كذبوه أخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

والأيكة الشجرُ الملتف وقد كان يسكنها قوم شعيب،(ففي معجم البكرى صفحة ١٣٥ وتاج العروس ج ٧ صفحة ١٠٤، ولسان العرب ج ١٢ صفحة ٢٧٤) إن الأيكة كان يسكنها قوم شعيب، وقد رُوى عن ابن عباس روايتان، إحداهما أن الأيكة من مدين إلى شعيب، والثانية أنها من ساحل البحر إلى مدين.

وعن ابن خردادبة في كتابه المسالك (ط د ى غوية ص ١٢٩) وابن رستة في كتابه (الأعلاق النفيسة ط د ى غوية ص ١٧٧) يُعد الفرعُ وذو المروة ووادي القرى ومدين ضمن أعراض المدينة المنورة.

ويروي ياقوت الحموى في معجمه عن مدين، عن أبي زيد البلخي المتوفي سنة ٩٣١م، «إن مدين تقع على بحر القلزم محاذية لتبوك، وبها البئر التي استسقى منها موسى لغنم شعيب».

ويصف حاجي خليفة في كتابه (جهان نما) القسطنطينية ١١٤٥هـ ص٢٥ يصف مدين فيقول:«إن مدين أطلال على ساحل البحر تقع إلى الغرب من تبوك، وعلى مقربة منها يتعرف الناس على صخرة فيقولون :إنها هي التي انبثق منها الماء بأمر موسى». وهناك في بطن الوادي أسوار قديمة وصفائح من الأحجار عليها نقوش وأسماء لملوك عديدين. وهذه الصفائح ذات النقوش التي يشير إليها حاجي خليفة قد تكون بعضًا من البقايا التي تساقطت من حوائط مباني النبطيين، وواجهاتها والتي تشاهد عليها بقايا النقوش النبطية.

ويقول حاجي خليفة في كتابه (جهان نما): إن واحة البدع كانت تسمى مغاور شعيب لأن نبي الله شعيبًا كان يعبد الله في تلك المغاور لكن المستشرق موسل أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة براغ يقول :إن المنطقة الرئيسية التي تسكنها قبائل مدين تقع في المنطقة المجاورة لواحة البدع،

وإن أقصى حدودهم من الجنوب هو واحة ديدان (العلا) وسبأ هي بعينها شبا التي يذكرها الإنجيل. والمعروف أن الموطن الأصلي لشبا أو سبأ هو الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية حيث أقامت دولة لها، ذات سلطان

ونفوذ عظيمين، ولكن خلال الألف الأولى قبل الميلاد كان الجزء الأعظم من التجارة العالمية في بلاد العرب واقعًا في أيديهم وأيدي المعينيين الذين كانوا ينافسونهم في السيادة لا في بلادهم فقط بل في الواحات التي تمر بها الطرق التجارية كذلك، فكانت تقيم في كل واحة من الواحات المهمة جالية من عرب الجنوب، وكانت تقيم معهم حامياتهم العسكرية. وقد كانت مدينة الحجر وواحة ديدان (العلا الحالية) من المراكز الرئيسية للنفوذ السبئي التجاري في شمال الجزيرة العربية ففي واحة ديدان كان يقيم حاكمهم أو كبيرهم الشريف السبئي الذي أرسل الجزية إلى سرجون الثاني عام ٧٠٧ ق.م.

ومن المحتمل وجود آثار سبئية في الشمال الغربي للبلاد العربية الحجازية، كما وجد آثار معينية في نجران.



معان

معان من أهم الواحات في الشمال الغربي للحجاز، وقد كانت ملكًا لأصحاب الطريق التجاري ،وهم سادة الجنوب من السبئيين كما كانوا سادة واحة ديدان. ولا ندري لماذا لم تشر إليها الوثائق الآشورية مع أن الجيش الآشوري احتل الإقليم الواقع حول معان في النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد. وكذلك المؤلفون القدامى من اليونانيين والرومانيين لم يذكروا معان في مؤلفاتهم. ولكن المؤلفين من العرب ذكروها بشيء من الاهتمام والعناية، وفي مقدمة هؤلاء الاصطخري في كتابه (مسالك الممالك) (ط دى غوية ص ٦٥) إذ يقول: إن معان مدينة ومعقل في إقليم الشراه وإن بني أمية كانوا يسكنونها هم ومواليهم.

ويقول البكري في معجمه (طفيستنفلد ص ٥٠١، ٥٤٩): إن معان معقل منيع في البلقاء على خمسة أيام من دمشق في طريق مكة، ويقول: إن فروة بن عمرو الجذامي كان عاملاً للروم على معان وما جاوره ولما أسلم أهدى

رسول الله ﷺ بغلة بيضاء فلما بلغ الروم ذلك طلبوه حتى ظفروا به وقتلوه ثم صلبوه. ويقول ابن حوقل في كتابه المسالك (ط د ى غوية ص١٢٤):

«إن معان مدينة صغيرة على شفير البادية سكانها بنو أمية، وفيهم لبني السبيل مرفق ومعونة».

ويذكر محمد أديب في كتابه «المنازل»(ط إستنبول ١٢٣٢ هـ ص ٧٠)أن واحة معان كانت تسمى (معال) وكانت تابعة لإقليم الشراه، وفي هذا لمكان الغني معقلان أُنْشِئ أحدهما في عهد السلطان سليمان، وفي الجنوب الشرقي من معان يوجد عدد عظيم من أشجار الشوك المعروف بأم عياش، وقد علق الأستاذ موسل على هذا بقوله» وهذا النوع لا يوجد في شمال معان وفيما عدا هذا النوع من الشجر لا ينبت شيء هناك ويتخذون من خشبه الذي يشبه خشب الأكاسيا مادةً لجميع ما يصنعون». ولعل محمد أديب كان يعني بهذا أشجار الطلح الذي ينمو في الجنوب الشرقي من معان في جميع الأودية هناك، مهما كان حجمها ولكن لا ينبت شيء منه في المنطقة الشمالية الشرقية.



قبيلة طي

قبيلـةٌ عربيـةٌ أصيلـةٌ تَنْتسـب إلى طـي بـن أدد بـن زيـد بـن يشـجب بـن عريـب بـن زيـد بـن كهـلان، وتتفـرع مـن بنـي طـي بطـونٌ وأفخـاذٌ منهـا، بنـو جديلـة، وبنـو رومـان عـارة، وبنـو قـرواش، وبنـو سلسـلة، وبنـو دغـش.

سـطع نجمهـا في القـرن الثالـث عشر. كانـت تقيـم باليمـن وخرجـوا منـه عـلى إثـر خـروج الأزد منـه، ونزلـوا سـميراء وفيـد في جـوار بنـي أسـد، ثـم غلبوهـم عـلي جبـلي أجا وسـلمى فاسـتقروا بهـما، ثـم ورثـت مـن بـلاد أسـد بلادهـم، ثـم ورثـت منـازلَ بنـي تميـم بـأرض نجـد فيـما بـين البـصرة والكوفـة واليمامـة. ومـن بلـدان طـي القريـات، ودومـة، وسـكاكة، والقـارة، وظريـب والمحـضر، وتيـماء.

ومـن حوادثهـم التاريخيـة أن قبيلـة طـيء أغـارت عـلى إيـاد بـن نـزار فظفـرت بهـم وغنمـت وسـبت (مجمـع الأمثـال).

ومنهـا أن بنـي عامـر أغـارت عليهـم، فنـذرت بهـم طـئ فاقتتلـوا فظفـرت عليهـم طـيء (معجـم مـا اسـتعجم للبكـري

والأغـاني ج ١٨ ص١٩٣).

تقيـم عشـائر مـن طـيء في سـفوح جبـل إرم المعـروف بجيـش إرم، حيـث كانـت تقيـم عـادٌ الأولى (١). ويقـال إنـه توجد هناك صخـورٌ عليها نقـوش وإن المساكن والنقـوش قد عبثت بها العواصف الرملية، والحـرارة، والـبرودة، والصقيع، والأمطـار، ويمكـن رؤيتهـا في المنطقـة التـي تجـاور جبـل إرم.

كانـت طـيء تسـيطر عـلى هـذه المنطقـة وتفـرض سـلطانها على القبائـل التـي تقيـم فيـها بـين البحـر الأحمـر والبحـر الميـت، وفي هـذه المنطقـة التـي تجاور جبـل إرم كان يقـوم (جـدر بعـل) الـذي يـرد ذكـره في العهـد القديـم (شـمال الحجـاز ص ٥٨).

جـاء في «كتـاب عجائـب المخلوقـات للقزويني ط القاهـرة ص ٢٢٤»: إن عـادًا قـد كانـت لهـم مسـاكن، في ذروة الجبـل المعـروف بجيش إرم في أرض قبيلـة طـيء.

وطـيء مـن قبائـل الجزيـرة إحـدى محافظـات الجمهوريـة السـورية، تُعـد القبيلـةُ الثانيـة في هـذه المحافظـة مـن حيـث المركـز والنفـوذ وبعـد الصيـت.

وطـيء الحـاضرة هـي في الغالـب منحـدرة مـن قبيلـة طـيء القحطـاني القديمـة، وقـد خـرج أسـلافها مـن جبـلي أجا وسـلمى

بعد أن استولت عليهما شمّر وأزاحت قبيلة طيء منهما.

وبعث النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب سنة تسع ومعه مئة وخمسون من الأنصار ليهدم صنم الفلس وكان بنجد تعبده طيء، فهدمه وغَنِم سبْيًا نعما وشياه (معجم البلدان ج ٣).

وقدم على الرسول ﷺ وفدٌ من طيء فيه زيد الخيل بن مهلهل سنة تسع وهو سيدهم، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا وحَسُن إسلامهم وقال ﷺ: « **ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه سوى زيد الخير** » (شرح المواهب ج ٤) ولما ارتدت العرب تمسكت طيء بالإسلام. (تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ١ ص١٩).

وحاربت طيء مع المثنى في العراق سنة ١٤ه (تاريخ الطبري) وناصرت طيء عليَّ بن أبي طالب في حوادث سنة ٣٦هـ، فلما نزل عليٌّ رضي الله عنه بالربذة أتته جماعةٌ من طيء فقيل لعلي: جماعة من طيء قد أتتك، منهم من يريد الخروج معك ومنهم من يريد التسليم عليك. قال: جزى الله كلًا خيرًا وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا، ثم دخلوا عليه فقال علي.. ما شهدتمونا به؟

قالوا: شهدناك بكل ما تحب، قال: جزاكم الله خيرًا، فقد أسلمتم طائعين، وقاتلتم المرتدين، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين (تاريخ الطبري).

عبادتهم:

كانت طيء تعبد في الجاهلية صنمَ الفلس (الطبري)، يقوم في وسط جبلهم المعروف باسم (أدبي) في أعلى ديار طيء، وناحية دار فزارة، يُرى كأنه تمثال إنسان يَعبدونه ويُهدون إليه ولا يأتيه خائف إلا أَمن عنده.



قبيلةُ جذامٍ

جـذام لقـب عمـرو بـن عـدى، بطـن مـن كهـلان، مـن القحطانيـة، وهـم بنـو جـذام بـن عـدى بـن الحـارث بـن مرة بـن أدد بـن زيـد بـن يشـجب بـن عريـب بـن زيـد بـن كهـلان. كانـت قبيلـة جـذام تنـزل بجبـال شـمال الحجـاز، ومسـاكنها بـين مديـن وتبـوك. وجـذام أول من سـكن مـصر مـن العـرب، حـين جـاءوا في الفتـح مـع عمـرو بـن العـاص وأُقطعـوا فيهـا بـلادًا، وكان بالإسـكندرية مـن جـذام قـوم ذو عـدد وعـدة وأهـل شـجاعة وإقـدام، وضربٌ بالسـيف ورشـقٌ بالسـهام، وكانـوا يسـكنون الحـوف شرقـي الدلتـا في سـنة ٨٠٣هــ - ١٤٠٠م. وقـد حاربـت جـذام سـنة ٨هــ جيـش عبـد الله بـن رواحـة (تاريـخ الطـبري ج٣ ص١٠٧) وسـارت جـذام مـع هرقـل سـنة ١٤هــ إلى أنطاكيـة، كانـوا يعبـدون المشـترى وصنمًا لهـم في مشـارف الشـام يُقَـال لـه الأُقَيـصر، فكانـوا يحجـون إليـه ويحلقـون رؤوسـهم عنـده. (تاريـخ الطـبري ج٣ ص١٠٧).

اعتنقـت قبيلـة جـذام الإسـلامَ سـنة ٦٢٧/ ٦٢٨م إذ قـدم رئيسـها وهـو رفاعـة بـن زيـد عـلى رسـول الله ﷺ بالمدينـة ودخـل الإسـلام وكتـبَ لـه رسـولُ الله كتابًـا إلى قومـه، ولكـن

الهنيد (أحد أفراد هذه القبيلة) وابنه قد هاجما رسولًا للنبي في وادي شنار ثم سلباه، وكان هذا الرسول عائدًا من لدن هرقل في رسالة للنبي إليه، ولما بلغ الخبر قبيلة جذام التي كانت قد أسلمت نفرت إلى الهنيد واستنفذت ما سلبه من الرسول فردوه عليه، ثم خرج الرسول حتى قدم المدينة فأخبر النبي ﷺ الخبر واستسقاه دم الهنيد، فوجه النبي غزوة إلى قبيلة جذام بقيادة زيد بن حارثة، فصادفت الهنيد وعشيرته فقتلته ثم سلبته وكان ذلك قريبا من الماقص في إقليم الأولاج، وكان يقيم في الحرة المجاورة في وادي مدان الذي يسيل مشرقا – إحدى عشائر جذام التي كانت قد دخلت الإسلام مع رفاعة بن زيد عندما سمعوا بما حدث لعشيرة الهنيد فقد ركب نفر منهم إلى المسلمين فلما تحققوا الأمر عادوا في المساء إلى أهليهم بالمدان. وبعد أن استعتموا بالمدان وشربوا عتمتهم ركبوا إلى رفاعة بن زيد عند عين كراع بظهر حرة ليلى فأعلموه الخبر. ثم شدوا رحالهم جميعًا على الجمال وساروا إلى جوف المدينة فبلغوها بعد ثلاثٍ ليالٍ فلما دخلوا المدينة قصوا على الرسول ما حدث فأمر الرسول بفك الأُسَارى من جذام وأرسل عليًا بأمره هذا مع رفاعة ليبلغه زيدًا فلقياه وجيشه بفيفاء الفلحتين، فاستردت جذام جميع ما كان في أيدي الجيش.

والمنطقةُ التي تسكنها قبيلةُ جذامٍ منطقةٌ تِجاريةٌ هامة فهي تتصل بثلاثة طرق اثنين من الشام، الأول: عن طريق أيلة محاذيًا الحافةَ الغربية لسلسلة الجبال الجرانيتية مارًا خلال وادي الجزل.

والثاني: عن طريق معان وتبوك ثم يقصد إلى الحجر.

والثالث: يأتي عن طريق الأزرق وتيماء وبيرد، ويمر خلال المنطقة البركانية المعروفة بحرة ليلى، ثم يذهب بعد ذلك إلى المدينة.

والمنطقة التي تسكنها قبيلة جذام في إقليم حسمى منطقة جبلية بركانية وعرة بها جبال شاهقة تناطح السحبَ وتسكن في جانب كبير من التيه المنسوب إلى بني إسرائيل. ويذكر البكري في معجمه (طفيستنفد ٢٩٥)، أن حِسْمَى من أرض جذام حيث بقي به الآن ماءُ الطوفان بعد نضبه، وهو يذكر أن عنترة يخاطب بني فزارة المقيمة في أرض حسمى، وينبهها إلى أن الدخان المتصاعد من بركان العلندى سيأتيهم عنه بالنذر دون بيوتهم. والبكر أن الدخان يُرى أبدًا صاعدًا من رأس جبل العلندي.

وهذا نص عنترة:

سَيَأتيكم عني وَإنْ كُنْتُ نائيًا ... دُخَانُ العَلَنْدي دُونَ بَيْتي مِذْوَدُ

قصائدُ مِنْ قِيل امرئ يَحْتَدِيكم ... وَأَنْتُم بِحَسمي فارتَدوا وَتَقَلَدُوا

وهذا البركان الذي يتصاعد منه الدخانُ، يقع في الجزء الجنوبي الشرقي من حرة ليلى.

أما لماذا بقيت مياه الطوفان في إقليم حِسْمَى خاصة فغير معقول إذ أن مياه العيون العديدة هناك لا تختلف في مياهها عن المياه في الأقاليم المجاورة.

ويحدثنا المقريزي في كتابه السلوك (ترجمة كارتمير ١ : ٦١)، أنه في يوليو من عام ١٢٥٦م (جمادي الآخرة عام ٦٥٤هـ) ظهرت نارٌ بالحجاز واستمرت شهراً في شرقي المدينة المنورة، خاصة بناحية وادي شطا تِلقاء جبل أحد حتى امتلأت تلك الأودية منها، وصار يخرج منها شررٌ يأكل الحجارة وزُلْزِلَتْ المدينةُ وسَمِع الناسُ أصواتًا مزعجة قبل ظهورها بخمسة أيام، وقد انبجست الأرض عن نارٍ عظيمةٍ عند وادي شطا وامتدت أربعةَ أميالٍ وعمق قامة ونصف وسال الصخر منها، ثم صار فحمًا أسوداً.

وذكر غير واحدٍ من الأعراب الذين كانوا بحاضرة بلد بُصْرى من أرض الشام (إقليم حوران)، أنهم رأوا صفحاتِ أعناقِ إِبلهم في ضوءِ هذه النار.

وفي أخبار المتنبي وحكاية مسيره من مصر يقول: إن حِسْمَى أرضٌ طيبةٌ يؤدى لين النخلة من لينها، (وهي مشهورة بهذا النوع

من التمر المعروف باللين) وتنبت جميع النبات ومملؤة جبالًا في كبد السماء متشامخة ملس الجوانب، إذا أراد الناظرُ النظرَ إلى قمةَ أَحدِهما فتل عنقه حتى يراها بشدة، ومنها ما لا يَقدر أحدٌ أن يراه ولا يصعده ولا يكاد القتام يفارقها كما يذكر النابغة:

فأصْبَحَ عاقلاً بِجِبَالِ حِسْمَى ... دُقاق التُرْبِ محتزم القَتَام

* * *

الأنباط

لعل الأنباط في مقدمة أولئك الذين تركوا آثاراً تتحدث عنهم، وتَعرض لنا شيئاً عن أعمالهم وتاريخ حياتهم، وهم لمْ يسكنوا في المقاطعة العربية التي عُرِفَتْ باسم بلاد العرب الحجرية (Arabia Patrae)، الواقعة إلى الشرق والجنوب الغربي من البحر الميت، حيث توجد عاصمتهم (البترا) ولكن الجزء الأكبر من إقليمهم كان يدخل ضِمن بلاد العرب السعيدة (Arabia Felix).

ووفقًا لارتيميدورس فإن النبطيين كانوا يسكنون الواقعة إلى الجنوب والجنوب الشرقي من خليج العقبة. يرى الأستاذُ موسل أن هذه الجزيرة هي جزيرة (ديا) المعروفة باسم صنافير.

ويذكر سترابو في جغرافيته (١٦/ ٤: ٢٦) أن أرض الأنباط تزدهر بأنواع من مختلف الفواكه زيادةً على ما يَنْبُت بِها من الزيتون، وأن الأهالي هناك يستعملون زيت السمسم، ويقول: إن الأغنام هناك بيضاءُ الصوفِ والثيرانُ

كبيرة الحجم. معظم المناطق التي يسكنها الأنباط كثيفة السكان، غزيرة المرعى يسودها الأمن، ولكنهم بعد فترة من الزمن أخذوا يهاجمون السفنَ القادمةَ من مصرَ؛ إذ كان لديهم قوارب صغيرة خفيفة سريعة، فأبحر إليهم أسطولُ مصر لتأديبهم فخرب كثيرًا من ديارهم.

ويذكر سترابو أن ممالك النبطيين كانت تمتد مسيرةَ أيام عديدة إلى جنوب ليكه (Leuke) وأنها كانت حجار أرض الاريتاى (Aretae) الذين اعترفوا بسلطان عبادة (Obada) ملك النبطيين.

ويذكر ديود روس أن الأنباط شديدو المراس، ومن العسير جدًا أن يُقهروا في الحرب ؛لأنهم ينقرون أحواضاً في الأرض الصخرية لحفظ الماء، وهذه الأحواض والنقر هي المعروفة اليوم باسم (مقور) وهي تُنْقر إلى عمقٍ قدره أربعة أمتار. وهذا العمق يتخذ شكل الكمثرى ذات عنق ضيق لمنع التبخر، ويغطى عادة بحجر كبير يسيل الماء إلى النقرة من الأراضي المجاورة.

ويذكر سترابو كذلك في المقاطعة العربية السعيدة، كانت أول أمرها داراً للنبطيين والسبئيين الذين كثيرًا ما أغاروا على سوريا في عصر ما قبل الرومان.

من المناطق التي كان يقيم فيها الأنباط منطقةً تقع وراء خليج لحيان (العقبة) على مَقْرُبةٍ من الساحل، ربما كانت المنطقة المنخفضة من وادي الأبيض المعروف بالعفال أو العفار، فقد كانت تقوم هناك قرىً كثيرة لهم، لم يبقْ منها شيءٌ الآن سوى أحراشٌ صغيرةٌ من أشجارِ النخيل والسدر وبعض سدود الرَيّ التي أُقِيْمَت ضد أفواه الوديان وبقية من الأسوار التي كانت تسور الحدائق، مما يدل على أن هذه البقعة كانت في وقت ما خصبه.

وتحف بهذه البقعة من الشمال ومن الشرق تلالٌ وجبالٌ شاهقةٌ طاعنةٌ في السماء، وعلى سفوح الوديان تُوجد مُروجٌ مُغطاةٌ بأنواعٍ من الحشائش ربما كانت مرعى للجمال البرية والمواشي والوعول البيضاء. ويقال إن هناك أسودا ولكن هذا النوع من الحيوان المفترس قد انقرض تماماً من هذه المنطقة، ولكن لا زالت هناك بعض الذئاب والفهود.

وفي منطقة مجاورة للساحل غير بعيدة من قرى الأنباط قبيلة بدائية تعيش على صيد البر وتَقْتَاتُ بلحوم الحيوانات التي يصطادونها تسمى (بنوزومانيس)، لعلها تنحدر من أصلٍ دخيلٍ على العرب. وهناك يوجد معبد قديم كانت تقدسه

العربُ جميعًا وقد هاجمته عواملُ التعريةِ حتى فككته، وسيأتي يوم يصبح فيه كومةً من الثرى.



بدنا

قبيلةٌ قديمةٌ لم يذكرها المؤلفون القدامى بشيء من التفصيل. ورد ذكرها في المخطوطات القديمة بأسماء مختلفة منها (Badanatha) و(Badeos) و(Baelalaze) والنص الآشوري يحدد مكانها بالقرب من تيماء ويذكر اسمها مرة بلفظ (بدون) وأخرى بلفظ (مدون). ويرى موسل أستاذُ الدراساتِ الشرقيةِ بجامعة براغ أن اسم بدنا يذكره بقبيلة (بدون) أو (مدون) التي تقع في نجد الحجاز إلى الجنوب الشرقي من واحة العلا. وهناك بعض القبائل تؤكد أن قبيلة بدنا ترجع إلى أصل قديم جدًا، وأنها لا تنتسب إلى أحد.

ويرى الأستاذ موسل أن المقصود بـ(Badanarha) هم سكان واحة البدع.

* * *

اللحيانيون

اللحيانيـون مـن أكـبر القبائـل العربيـة سـطع نجمهـا في القـرن الرابـع والقـرن الثالـث ق م، والتـوراة لم تـشر إلى اسـمها ولكنـه كان مألوفًـا لـدى الكُتّـاب الأقدمـين مـن اليونـان والرومـان.

كان اللحيانيـون (Laeanites) يسيطرون لا عـلى الطريـق التجـاري العظيـم الـذي يصـل الجنـوب العـربي الغـربي بسـوريا ومـصر، بـل كذلـك عـلى الطريـق البحـري في البحـر الأحمـر حتـى إيـلات.

وفي عهـد أجاثـا رشـيد كان خليـج العقبـة يسـمى خليـجُ لحيـان (Laeanitic) وكان البحـارة والتجـار الإغريـق يدفعـون الجزيـة للجبـاة مـن لحيـان، وربـما اسـتمر ذلـك حتـى القـرن الرابـع والثالـث قبـل الميـلاد، لأن اجاثـا رشـيد الـذي كتـب عـن البحـر الأحمـر في القـرن الثـاني يعـرف فقـط اسـم خليـج لحيـان (Laenites).

وبلينـي يذكـر في التاريـخ الطبيعـي (٦: ١٥٦) عاصمـة

اللحيانيين، وهذه العاصمة هي (Hagra) أو الحجر الحديثة. أما مركزهم التجاري الرئيسي فكان يتركز في واحة ديدان (العلا) على بعد عشرين كيلًا تقريباً إلى الجنوب من الحجر.

وفي أوائل القرن الأول المسيحي ازداد نزوحُ النبطيين من الشمال إلى الجنوب، واستقروا في الحجر التي بدأت تحل تدريجياً محل ديدان القديمة، فكانوا أول أمرهم رعية للحيانيين الذين كانوا يسكنون كذلك في واحة الحجر، كما كانوا يسكنون في واحة ديدان. واللحيانييون هم الذين أفسحوا للأنباط في القرن الثاني والأول قبل الميلاد واللحيانيون بطنٌ من هذيل من العدنانية، وهم بنو لحيان بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وبعث النبي ﷺ عشرة عينًا، وأَمّر عليهم عاصمَ بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب لأمه، حتى إذا كانوا بالرجيع ويُقالُ بالهدأة، وهما متجاوران بين عسفان ومكة، ذكر لحيان بن هذيل، فنفروا إليهم بقريب من مائة رجل، فاقتصوا آثارهم فأدركوهم وأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا، أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم

أخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، ثم سار إليهم رسول الله ﷺحتى نزل على غران، وهي منازل بني لحيان فوجدوهم قد حذروا وتمنعوا في رؤوس الجبال، فلما نزلها رسول الله ﷺ وأخطأ من غرتهم ما أراد، قالوا: لو أنّا هبطنا عسفان لرأى أهلُ مكة، أنّا قد جئنا مكة، فخرج في مائتي راكب من أصحابه حتى نزل عسفان.

(سيرة ابن هشام ج٢ ص٢١٢. تاريخ الطبري ج٣ ص٥٩، تاريخ ابن خلدون ج٢ ص٣١٩ معجم ما استعجم للبكري ج١ ص٢٢٤، الجامع الصحيح للبخاري ج٣ ص١٩، نهاية الأرب للنويرى ج٢ ص٣٤٩. معجم قبائل العرب لعمر رضا كحالة ص١٠١٠.



المعينيون في الشمال

اكتشـف ويتنـج (Euting) في منطقـة ديـدان (العـلا) نقوشًـا معينيـة دُوِنَـتْ في حـوالي منتصـف الألـف الأول قبـل الميـلاد. ومـن أسـماء بعـض الملـوك الـواردة في تلـك النقـوش نجـد أن تلـك المنطقـة عُمِـرتْ حـوالي قرنـين. وجليـس وهـو أحـد الذيـن توفـروا عـلى دراسـة نقـوش المعينيـين في شـمال شبه الجزيـرة العربيـة وفي جنوبهـا، يـرى أن نفـوذ المعينيـين امتـد إلى أقـصى الشـمال، ويـرى كذلـك أن سـكان مديـن في الأصـل مـن المعينيـين، وأن الأبجديـة التـي يسـتعملونها في كتاباتهـم وهـي (المسـند) ترجـع إلى الألـف الثانيـة والألـف الثالثـة ق.م. ويذهـب بعـض المؤرخـين إلى أن الكتابـة المعينيـة أقـدم عهـدًا مـن الكتابـة السـبئية ومـن سـائر الكتابـات العربيـة الأخـرى. مـن هـؤلاء المؤرخـين (هومـل) و(رود وكاناكيـس) اللـذان يريـان أن العـصر الذهبـي لملـوك الـدول المعينيـة، كان قبـل ارتفـاع شـأن السـبئيين، فالدولـة المعينيـة تألـق نجمهـا وفقـاً للنقـوش المكتشـفة حـوالي عـام ١٣٠٠ قبـل الميـلاد، وكانـت عاصمتهـم قرنـاو (القـرن).

الثابتُ تاريخياً أن دولة معين أُنْشِئتْ في اليمن ما بين ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق.م وفيلبي يرى أن مبدأ حكم أول ملك من ملوكها كان في عام ١٢٠ ق. م، وحكم آخر ملك هو عام ٦٣٠ ق.م وبعد: فوجود آثار معينية في العلا وغيرها من المناطق الشمالية الغربية للحجاز، دليل قاطع على هجرة المعينيين من الجنوب العربي إلى الشمال.

تحدثنا روايات اليونانيين التي تؤيدها الكشوف الأثرية الحديثة أن ممالكَ عظيمةَ في الجنوب العربي احتلت مكانها في التاريخ ممالكٌ ازدهرت وتحضرت نحو عشرين قرنًا وعلى رأس هذه الممالك دولتا سبأ وقتبان ومعين.

فما الذي دفع بالمعنيين والسبئيين إلى الهجرة إلى الشمال الغربي للحجاز، بعد أن بلغوا الذروة في الحضارة في بداية الألف الأول قبل الميلاد.

الدافع لهجرة المعينيين والسبئيين إلى الشمال ؛التغييرات الجوية وما نتج عن هذه التغيرات من جفاف وخاصة الجفاف الأخير الذي حدث عقب عصر هطول المطر، الذي امتد من عام ١٢٠٠ ق. م إلى عام ٢٠٠م[1].

---

(١) سليمان حزين، القاهرة مطبوعات الجميعة الجغرافية المصرية، ١٩٤٢

ففي دراسة علمية أجراها علماءٌ متخصصون استمرت خمس سنوات وانتهت عام ١٩٨٠، جاء أنه في الوقت الذي عاشت فيه مصر والعراق أوج حضارتهما قبل أربعة آلاف سنة، سادت شبه الجزيرة العربية أحوالٌ مَنَاخيةٌ طبيعيةٌ معتدلةٌ بما في ذلك هطول أمطار غزيرة منتظمة، ووجود أنهار وحتى بحيرات في منطقة الربع الخالي. وقال أحد علماء الأنثربولوجيا (علم الإنسان) الذي شارك في هذه الدراسة هو جوريس زارينس في مقابلة مع مجلة (اركيو لوجي) الأمريكية: إنه يبدو واضحًا الآن أن أحوالاً مناخية رطبة وباردة، اجتاحت منطقة شبه الجزيرة العربية قبل ألفي عام.

وأضاف أنه في حوالي عام ٨٠٠٠ إلى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد وجِدَتْ مياه جارية في وديانٍ وبحيراتٍ كما نزلت الأمطارُ بكثرةٍ، وهي أحوال مناخية تختلف تمامًا عن الأوضاع المناخية الطبيعية في هذه المنطقة في الوقت الراهن.

ليس من شك في أن آراء هؤلاء العلماء على جانب كبير من الحقيقة، والأدلة التالية تؤيدهم إلى حد كبير:

١- في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية آبار بعضها محفور في سفوح الجبال والتلال، والبعض

الآخر محفورة في بقاع قاحلةٍ وهي في الوقت الراهن جافة وكانت فياضةً في العصور القديمة، ولما كانت مياهُ الآبار ترجع في الأصل إلى مياه الأمطار الساقطة التي تتسرب في باطن الأرض، فإن انخفاض مستوى تلك الآبار دليل قاطع على قلة الأمطار في الوقت الحاضر عنها في أيام سبأ ومعين.

٢- هناك مدن كثيرة ترجع إلى حضارات معين وسبأ وقطبان وحمير، وهي الآن في مناطق جافة كشبوه في حضر موت ذات الستين معبد المطمورة تحت الرمال، ومدينتي ريبون والمخينيق الموجدتين في حضر موت كذلك.

٣- وهناك مساحات من الأراضي التي تزرع إما مباشرة وإما بواسطة السدود التي بناها القدماءُ، كانت تعج بالزراعة فأصبحت اليوم تعج بالصمت والعدم.

٤- وهناك صهاريج كصهريج عدن الذي يسع ٣٠ ألف جالون يقع على مرتفع منحوت في الصخر، يتلقى المياه ويستقى منه الناس طوال العام، وفي الوقت الحاضر لا يحدث أن يمتلئ ذلك الصهريج ولا يتجمع فيه غير قليل من الماء أثناء سقوط الأمطار، ثم لا يلبث أن يأسن ويتغير لونه وطعمه.

٥- وهناك ضرب آخر من الأدلة الناطقة لتغير المناخ في شبه الجزيرة العربية يُسْتَخلص مما خلفه القدماءُ من كتابات ونقوش وقصص من جبل إلى جبل، على أن الأمطار في العصر الجاهلي الأول كانت أغزر وأكثر انتظاماً منها الآن، وأن موارد المياه كانت خيرًا مما آلت إليه في العصر الحديث.



ازدهار المنطقة الشمالية للحجاز

عاشت المنطقة الشمالية الغربية للحجاز مزدهرة آلاف السنين ثم اختفى ذلك الازدهار بعد حين من الدهر. فما سبب ذلك الازدهار وإلى ما يعزى اختفاؤه؟؟

سبب الإزدهار:

يرجع سبب الازدهار في المنطقة الشمالية للحجاز إلى أمرين اثنين:

أولًا: قدوم موجات بشرية من الجنوب الغربي للبلاد العربية، وقد سلكت في نزوحها إلى الشمال طريقين برية وبحرية، حتى وصلت إلى المناطق التي استقرت فيها حاملة معها ما تملكه من أشياء ثمينة، حملت ثقافتها وخطها الذي اشتُقَت منه سائر الأقلام ومنه القلم الفينيقي، وطبعت تلك المناطق التي حلت بها بهذا الطَابع السامي[١].

ثانياً: القوافل التجارية:

كانت القوافل التجارية تقوم من مواني الجنوب العربي

---

(١) بيرين ص ٣٠-١.

كميناء سلالة وعدن وربما الشحر قاطعةً الطريقَ على طول امتداد شواطئ البحر الأحمر مخترقةً مكةَ والمدينةَ والعلا إلى البتراء حيث تُوَرّد ما تحمله من بضائع هندية، ومحصولات محلية كالبخور لشعوب البحر الأبيض المتوسط. وكان هذا الطريق التِجاري العظيم في أشد الحاجة إلى من يحرسه ويعمل على ضمان الأمن وتأمين القوافل من سطو البدو، لذلك اضطُرَّ العرب الجنوبيون إلى إنشاء قواعد تقوم على حراستها جنود مسلحون من دولتي سبأ ومعين في المنطقة الشمالية الغربية للحجاز، واستتبع هذا النظام خلق مستعمرات معينية وسبئية، في العلا وغيرها، ولقد اكتشف أويتنج (Euting) في العلا نقوشًا معينية تنسب لمستعمرة معينية تُسَمى (مصرى) جاء ذكرها في النقوش العربية الجنوبية. وقد دُوِنَت هذه النقوش في الألف الأول قبل الميلاد. ويُسْتَنتج من أسماء بعض الملوك الواردة في تلك النقوش المعينية أن تلك المستعمرة عمرت في الشمال حوالي قرنين (٢)، كانت هذه القوافل التجارية العظيمة تسلك في خط سيرها ذلك الطريق الوحيد لسبب هام ذلك هو؛ وجود واحات خصبة

منحها الله لتلك البلاد القاحلة، فالجمال والتجار يحتاجون إلى الماء والغذاء وهما أغلى من الذهب في تلك المناطق الصحراوية الماحلة.

كانت المدنُ تقومُ حول هذه الواحات، وتتقاضى الجُعَالات من القوافل لقاء السماح لها بالمرور فيها والتزود بالماء والغذاء.

وبالإضافة إلى ذلك الطريق البري العظيم كان هناك خط بحري بين موانئ جنوب البلاد العربية، وبين الساحل الغربي للهند يمد طريق القوافل بمنتجاتِ الهند، من أحجار كريمة، وعطور، وحرير، وصدفِ السلاحف وغير ذلك. كان هذا الخط البحري أو كانت تلك السفن الشراعية تقوم من جد روزيا بالساحل الغربي للهند، ومن جزيرة سقطرى التي تقع بين الهند وشبه الجزيرة العربية والقرن الإفريقي، وهي نقطة تقاطع طريق مهم بالنسبة للتجارة، وقد اشتُهِرَ أمرُ هذه الجزيرة حتى قبل أن يقوم موسى بالإسرائيليين ويخلصهم من استعباد الفراعنة وكانت السفن الشراعية تستعين عند إبحارها بالرياح الموسمية تلك الرياح التي ظل أمرُ تغييرات هبوبها سراً شرقياً لعدة آلاف من السنين.

وفي الزاوية الغربية للساحل العربي الجنوبي مراسي تستقبل البضائع من القرن الإفريقي، ثم تقذف بها لتتابع سيرها في ذلك الطريق البري التجاري العظيم.

أما أهم المنتجات الواردة من الجنوب العربي ومن القرن الإفريقي، فهي التوابل واللبان والصمغ والبخور، وكان اللبانُ والصمغُ والتوابلُ تُسْتَعمل في التحنيط والتبخير، وكذلك في صناعة العقاقير، كما أنها تُحرق في المياتم والأفراح وغير ذلك، بالإضافة إلى ما يُحرق منها يومياً في كثير من البيوت.

وكانتْ الطقوسُ الدينية تستهلك أكبر كمية من البخور. وكان المسك مقدسًا لدى رجال الدين. أما البلد الذي يصدر هذا النوع من البخور وهو الجنوب العربي فقد أُحيط بهالة عظيمة من القداسة وذلك ؛لأنه يزود العالم القديم بأكثر منتجاته القدسية ألا وهو البخور.

ولقد شيد رمسيس الثاني ملك مصر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد بناء خاصًا لِخَزن البخور ثم أمر بحرقه تزلفًا إلى الإله (آمون). وكذلك كان (الهيكل) في القدس يضم غرفة خاصة للبخور وتظل هذه الغرفة تحت حراسة شديدة.

وفي بلاد فارس كان (داريوس) يتلقى من العرب ألف وزنة من البخور كل عام، أو ما يزيد على ثلاثين طَنًا.

وفي بابل كان مذبح الإله (بعل) يُحاط بكميات من المسك تبلغ حوالي (٦٠٠٠٠) رَطل إنجليزي كل سنة. وكذلك آلة الهندوس واليونان والرومان كانت جميعها تتطلب ذلك الرحيق المجفف، لشجرة معينة تنمو في الغالب في ظفار.

وطوال أكثر من ألف سنة ظل الجنوب العربي والمنطقة الغربية للحجاز مزدهراً فوق ما يتصوره العقل، والمنطقتان تتمتعان بمزايا اسمها (العربية السعيدة).

وخلال القرون التي كان فيها المحيط الهندي المركز الصاخب للتجارة البحرية قبل أن يصبح البحر الأبيض المتوسط المركز العالمي للتجارة البحرية - كان العرب يحتكرون طرقاً حيوية تربط بين حضارتين لم يسبق لهما أن اتصلتا ببعضهما اتصالاً مباشرًا، فقد كانت السفن القادمة من الهند ترسو في الموانى العربية الجنوبية.

محاولة كشف طريق بحري حول الجزيرة العربية:

ترجع المحاولة لكشف طريق بحري حول الجزيرة العربية إلى عصر موغل في القدم فقد ثبت أن (حيرام) ملك صور الفينيقية، كان يريد أن يكفل للتجارة الفينيقية إلى البحر الأحمر طريقاً آمنا ؛لذلك أنشأ مع داوود

(١٠١٣- ٩٧٣ ق.م) ومع ابنه سليمان (٩٧٣- ٩٣٣ ق.م) صلات مع سبأ لبناء سفن لنقل التجارة الفينيقية عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي.

ولعل أقدم محاولة لكشف الطرق الملاحية حول سواحل شبه الجزيرة العربية، هي تلك المحاولة التي أشار إليها هيرودوت (Horodotus)، فقد ذكر أن (سكيلاكس وبعضًا من البحارة اليونانيين نزولًا عند أمر (دارا) ملك الفرس حوالي عام ٥١٠ ق.م استطاعوا أن يدوروا حول شبه الجزيرة العربية.

والجدير بالذكر أن بطالي مصر (٣٠٥- ٣٠ ق.م) قد أنشأوا خطاً ملاحياً بين خليج عدن وشرق البحر الأبيض المتوسط (١)، ولكن أهم كشف جغرافي ظهر أثناء عهد الدولة الحميرية، هو الكشف الذي قام به هيبالوس (Heppalus) الروماني بين عامي ٤٠ و ٥٠م وهو الكشف الخاص لاستخدام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في رحلة واحدة من خليج عدن إلى الساحل الغربي إلى الهند.

ولعل ذلك كان بمساعدة ملّاحين عرب، وقد استعان (نيارك) قائد أسطول الإسكندر في اجتيازه المحيط الهندي

بربان عربي حتى وصل إلى جدروزيا عند مصب نهر السند، حيث وجد هناك مدناً عربيةً وجاليةً عربيةً (Arabitoe).

جيان (وثائق تاريخية جغرافية تجارية لإفريقية الشرقية).

(Guilain): (Documents Sur I'histoire la Grographie et le Commerce de L'Afrique Orientale).

أوفير:

يذكر الكُتّاب الأقدمون أن من أهم صادرات الجنوب العربي الذهب، فمن أين يأتي هذا المعدن الثمين أمن الجنوب العربي؟! إني أشك في ذلك التوراة تصف (أوفير) بأنها جزيرة الذهب.

والتوراة تقول :إن سليمان كان كثيرَ السفر إلى أوفير.

والتوراة تقول إن السفن التي كانت تُبْحِر من فلسطين كانت تُمْضِي ثلاث سنوات (سنة وأجزاء من السنتين الأخرتين حسب الحسابات العبرية) لكي تقوم بهذه الجولة إلى مدينة ذهب.

فأين هذه الجزيرة؟

في سنة ١٩٤٨ وجِدت نقوشٌ كثيرة في (تل القواصلة) القريبة من (عكا)، يرجع تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد. تذكر هذه النقوش أن ثلاثين من الذهب جيء بها من أوفير.

وهذه أول إشارة إلى (أوفير) وذهبها نجدها خارج التوراة. لقد كان هناك التباسٌ ومنازعةٌ بين كلمتي (أوفير) و(بنت) إذ أن كليهما كانتا تفسران على أنهما جنوب شبه الجزيرة العربية، والحقيقة فإن (أوفير هي الاسم العبري للصومال وللمناطق المجاورة لها، بينما (بنت) هي الاسم المصري للمنطقة ذاتها وليس هنا من سبب يجعلنا نعتقد أن كلا الاسمين قد كان يعني جغرافيًا منطقة تمتد حتى جنوب شبه الجزيرة العربية، **إذن أين تقع (أوفير)؟**

وكان العالم الأثري البروفسير البايت قد أوضح منذ أكثر من خمسين عاماً أن كلمتي ابس وبيكوس القرود والطواويس اللتين مصدرهما أوفير هما ذات الكلمتين المصريتين لاسمي نوعين مختلفين من القرود أُحضرا من (بنت) بواسطة المصريين. أما ترجمة كلمة بيكوكس) فقد اشتُقَت من حدس قديم يربط بين أوفير وبين الهند خطأ (كنوز بلقيس ص١٢٥).

والآن.. ما الذي أنهى فترة العظمة والازدهار الطويلة التي عاشتها منطقتا الجنوب العربي والشمال الغربي للحجاز؟ لقد كانت هناك عوامل شتى منها:

أولاً: تناقص البخور في العصر المسيحي، بعد أن حلت المسيحية محل الديانات الوثنية السابقة.

ثانياً: اكتشف بحارٌ يوناني يدعى «Hippalus» «هيبالاس»، في القرن الأول الميلادي أن الرياح الموسمية في المحيط الهندي تهب شرقاً باتجاه الهند في الخريف وغرباً باتجاه إفريقية في الشتاء، وعلى إثر هذا الاكتشاف راحت السفن الرومانية تمر جنوب الجزيرة العربية حاملةً البضائع من الشرق إلى الغرب بطريق البحر، وبتكاليف أقل بكثير مما لو مرت هذه البضائع عبر المدن التي تتقاضى الجُعَالات.

ومنذ ذلك الحين أُهملت منطقةُ الجنوب العربي كمركز للحضارة، حيث انتقلت هذه بعيدًا إلى الشمال والغرب.

وهناك رأي معارض لنظرية الجفاف وهو رأى موسل، الذي أرجع سبب هجرات قبائل الجنوب العربي إلى الشمال إلى عاملين اثنين، الأول تحول الطرق التجارية والثاني ضعف الحكومات.

تحول الطرق التجارية:

لقد بدأ الاهتمام حول سواحل شبه الجزيرة العربية شرقًا وغربًا وجنوبًا في عصر موغل في القدم، فقد ثبت أن (حيرام) ملك صور الفينيقية أراد أن يكفل للتجارة الفينيقية إلى البحر الأحمر طريقًا آمنا لذلك أنشأ مع داود (١٠١٣- ٩٧٣ ق.م) ومع ابنه سليمان (١٩٧٣- ٩٣٣

ق.م) صلات مع سبأ؛ لبناء سفن لنقل التجارة الفينيقية عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي.

ولعل أقدم محاولة لكشف الطرق الملاحية حول سواحل الجزيرة العربية شرقًا وغربًا وجنوبًا، هي تلك المحاولة التي أشار إليها هيرودوت، فقد ذكر أن (سكيلاكس) وعدد من البحارة اليونانيين - نزلوا عند أمر (دارا) ملك الفرس حوالي عام ٥١٠ ق.م واستطاعوا أن يدوروا حول شبه الجزيرة العربية.

والجدير بالذكر أن بطالمةَ مصر (٣٠٥- ٣٠ ق.م) قد أنشأوا خطًا ملاحيًا بين خليج عدن وشرق البحر الأبيض المتوسط[١].

ولكن أهم كشف جغرافي ظهر أثناء عهد الدولة الحِميرية هو الكشف الذي قام به (هيبالوس Hippalus) الروماني بين عامي ٤٠ و ٥٠م، وهو الكشف الخاص باستخدام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في رحلة واحدة من خليج عدن إلى الساحل الغربي للهند. ولعل ذلك كان بمساعدة ملَّاحين عرب، فالذي أرشد (نيارك) قائد أسطول إسكندر إلى جدروزيا بالساحل العربي للهند هو عربي.

(١) بيرين ص ٣٠-١، نقلا من ديودور.

ضعف الحكومات:

ليس من شك أن أي ضعف يبدو من الحكومة يفتح الباب على مصراعيه للتنافس على السلطة، ونشوب الفتن، والاضطرابات، بل ربما الحروب الأهلية وانصراف المسئولين في الحكومة عن الأعمال العمرانية، والصحية، والاقتصادية، وكساد الزراعة، والتجارة، وانتشار الأمراض، والفقر، واندفاع الشعب للنزوح إلى مواطن يأمن فيها الإنسان على نفسه وعرضه وماله، فانهيار سد مأرب مثلاً ليس سببه الجفاف كما يرى البعض بل يرجع إلى عامل آخر هو ضعف الحكومات اليمنية ونزاع الأذواء والأقيال فيها، وتدخل الحكومات الأجنبية في شئون الجنوب العربي كالحبشة والفرس، وقيام ثورات داخلية فألهى ذلك الحكومات عن القيام بإصلاح السد؛ فتفككت لبناته وتصدعت جوانبه وأخيرًا انهار؛ فيبست مناطقٌ واسعة من الأراضي الزراعية التي كانت على مقربة منه واضطُر سكانُ المدن والقرى إلى الهجرة إلى الخارج والإقامة في مناطق جديدة يسودها الأمن والاستقرار.

ضعف الحكومات عامل قوى، وأقوى العوامل لنزوح الشعب إلى الخارج طلبًا للأمن والاستقرار، ولكن يجب

ألا ننسى الجفاف وتحول الأراضي الزراعية إلى صحارٍ قاحلة ماحلة فهو كذلك عامل قوى للهجرة خارج الوطن (نظرًا لارتباط الآتيين بموضوع مدائن صالح نرى ادراجهما هنا).



الحجر بها بيوت لا قبور

مقال الدكتور: رانا إحسان الهي:

أولاً نشكر للأديب البارع الأستاذ صلاح البكري تفضله بالتعقيب على مقالنا المنشور في مجلة (المنهل) الموقرة، وبذلك أتاح لنا فرصة المناقشة في الموضوع وتنوير الظلام.

وقد قال صديقنا المحترم: إن كلمة جبل (الأثالث) بالثائين المثلثتين التي وردت في مقالنا المذكور هي (من قبيل التحريف وما يظهر بوضوح من شرحه (أي شرح ياقوت الحموى) إذ يقول (الأثالب جبل من أرض نمو عند الحجر).

وربما كان الحق معنا لأننا قد اعتمدنا على ياقوت الحموي الاخباريّ النحويّ نفسه حينما قال عن هذه الكلمة مرتين في معجمه المتقن: (الأثالث بلفظ الجمع، جبال في ديار ثمود بالحجر بقرب وادي القرى فيها نزل قوله تعالى: (وتنحتون من الجبال بيوتًا فارهين) معجم البلدان القاهرة ٢٤-١٣٢٣هـ أ. ١٠٦ وقال أيضًا في مادة الحجر: (الحجر بالكسر ثم السكون وراء، اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة

والشام (٣: ٢٢١- ٢٢٠) ثم نقل عن الاصطخرى أن الحجر قرية محله، كما نقله صاحبنا المكرم صغيرة قليلة السكان، وهو من وادي القرى على يوم بين جبال، وبها كانت منازل ثمود قال الله تعالى: (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) قال الاصطخري : ورأيتها بيوتًا مثل بيوتنا في أضعاف جبال وتسمى تلك الجبال الأثالث، وهي جبال إذا رآها من بعد ظنها متصلة فإذا توسطها رأى كل قطعة منها منفردة بنفسها يطوف بكل قطعة منها الطوائف (٣: ٨٢٢١).

بالإضافة إلى ما سردنا فقد نقل عبد المؤمن البغدادي عن ياقوت الحموي ما نصه «الأثالث بلفظ الجمع، جبال في الحجر ديار ثمود». (مراصد الاطلاع، مصر ١٩٥٤، ٢٤٠١) وقال: شليفر في مقالة في الحجر في دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة (٧: ١٣٩) «الحجر وتسمى الأثالث وتكتب دائمًا في دوتي (Travels) أثلب (Ethilib) (Encyclopidia of Islam) (٢: ٣٠١).

وأثار هذا الموضوع البستاني تحت عنوان (الأثالث)، وجاء حكمه بصراحة في قوله: أما الأثالب بالباء فتصحيفه (دائرة المعارف بيروت ١٢٩٤- ١٨٧٧، ٢: ٤٩٣).

ولم نجد في كتاب ياقوت الحموي القول الذي نسبه

الناقد الفاضل إلى ياقوت الحموي (الأثالب جبل من أرض ثمود عند الحجر)، كما لم نستطع أن نحصل على قول الإدريسي عن كلمة (الأثالب) في كتابه (نزهة المشتاق) في ذكر الأمصار والأخبار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق – فحقت البينة على الناقد الفاضل.

وأما (كلمة الأثالب) فليس لها معنى ولا علاقة بالحجر، ولعلها الأثالب بالثائين المثلثتين من ثلاث أي وضين وهو بطان منسوج بعض على بعض يشد به الرحل على البعير: وفيه قال الممزق:

وقدْ ضَمَرَتْ حتَّى الْتَقَى مِنْ نُسُوعِهَا

عُرَى ذِي ثَلاثٍ لمْ تَكُنْ قَبلُ تَلْتَقِي

وقال الطرماح بين حكيم أيضًا (من الطويل):

وقد ضَمرتْ حتِّى انطوى ذو ثلاثها

إلى أبهري درماء شعب السناسن

وجبال الأثالث على شكل الوضين.

وأما (الحجر) أو (هجر) فنحن نعرف سبعة عشر مكانًا في جزيرة العرب مشهورة كلها باسم (هجر) أو (حجر) أو مثله، ولسنا هنا في حاجة إلى سردها ويكفي أن نقول:

إن الغربيين حاولوا تلبيس الأمر تعبيرًا عن معتقداتهم الخاصة وميولهم الشخصية. ومعروف أن الحجر المشهورة بمدائن صالح هي (Egra) أو (Hargra)، عند بلينوس (٢: ٤٥٧ - ٤٥٣) وهي (Eypa) عند بطليموس.

انظر كتابه العظيم في ٣/ ٧: ٤ و ٢١، ولا في ٦/ ٧: ٢٩ كما أشار إليه صاحب التعقيب الأديب، ولا نعتقد بقول موزل أن (Hagra) يجب أن تكون مدينة الحجر التي كان اللحيانيون يقيمون فيها والتي كانت في منتصف القرن الأول الميلادي مِلكًا للنبطيين، ولا ننظر إلى آراء موزل إذا كانت تعارض نصوص القرآن. بل نقول: إن ثمودًا كانوا يسكنون الحجر منذ قرون ما قبل الميلاد؛ لأن طراز أبنية قصورهم كما هو معروف تسمى باسم القصور حتى الآن. دوتي (Travels Douhty) لندن ١٩٦٤/ ١: ١٥١) وكان هذا الطراز طارز الدور القديم. ولا يوجد هذا الطراز إلا في أبنية القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد ومعروف أن الطراز القديم أقدم وأبسط الطرز المعمارية اليونانية، ولذلك لا يوجد في بناء هذه القصور شيء من (Abacus) ولا من (Echinus)، كما قد أشرنا إليه في الرسم المنظور في مقالنا وهو دليل بليغ على أن هذه القصور أقدم من سبعة

قرون قبل الميلاد، وأن النصوص المنسوبة إلى اللحيانيين أو النبطيين لم ترسم على واجهات هذه القصور إلا بعد تكوين البناء بثمانية قرون.

ولا نفهم ما يهدف إليه صديقنا المحترم من الاعتقاد بأن المغارات بمدائن صالح تشبه إلى حد كبير المقابر الموجودة جنوبي الجيزة على مقربة من هرم سقرة.

وأما قولنا أن ثمود قد رسموا صورة القفنس على مداخل القصور للفأل الطيب. وقد استنبط منه الأديب الناقد الكريم أنه دليل على أن أولئك القوم كانوا يؤمنون بوجود حياة أخرى، ودليل على إيمانهم بالتناسخ فكل شيء إلا ذلك؛ لأن هذه التفاسير مجلوبة من بعيد. فكيف يكون من إيمانهم بوجود حياة أخرى فألًا طيبا لهم؟! وإلى أي حد يفيد إيمانهم بالتناسخ؟ وما العلاقة بين التناسخ والفأل الطيب؟، وقولنا واضح كالنهار وتفسيره الوحيد، أن هؤلاء القوم كانوا يعتقدون أنه يرسم صورة القفنس على مداخل قصورهم يمكنهم أن يعيشوا آمنين فارهين دائمين خالدين في هذه القصور مثل القفنس الذي لا يموت أبدًا.

وأما الرفوف المنقورة في داخل معظم البيوت فليست لدفن الأموات فيها؛ لأنها كلها غير عميقة ولا يزيد عمقها

على شبر (٢٣سم) ولا تتسع لجثة ميت قط وقد اعترف دوتي بذلك أيضًا حيث قال:

Yet their shallowness is suchr that they could not serve suppost to the receipt of the dead.

وأما الحفر والرفوف فإنها ليست إلا مخازن للأموال والنقود والثمار والبخور.

ونحن قد بذلنا جهدنا في أن نصل إلى صورة للنصوص المنقورة فوق مداخل بعض القصور ولم يكن لنا حظ في النجاح، إلى أن زارت الدكتورة (Spiehl) ستيهل مكتبة جامعة الملك عبد العزيز بجدة، والدكتورة مستشرقة ألمانية شهيرة ولها إلمام خاص بمدائن صالح وآثارها، وكانت زيارتها للجامعة منذ خمس سنوات فناقشتنا في موضوع المغارات بالحجر هل هي قبور أم بيوت. فأثبتنا لها بحجج دامغة أن هذه المغارات قصور وليست قبور. فتساءلت أخيرًا ماذا تقول: في النصوص التي قرئت مراراً وحللت وفسرت وترجمت إلى اللغة الفرنسية؟ فقلنا أن صورة النصوص غير موجودة بين أيدينا فكيف نقول شيئًا عنها؟ بل إننا نظن أن الغربيين قد أخطأوا في القراءة خاصة في كلمة (قصر) فقرأها (قبرا) لأن الفرق بين شكل الصاد

وشـكل البـاء في الخـط الثمـودي كان ضئيـلاً جـدًا، فأخبرتنـا الدكتـورة بـأن عندهـا كثـيرًا مـن الصـور لنصـوص مدائـن صالـح ووعدتنـا بـأن ترسـل لنـا بعـض الصـور في أسـبوعين. ثـم ذهبـت وهـي مقتنعـة برأينـا.. والآن وقـد مـضى عـلى سفرها مـا مـضى ولم يصلنـا شيء منهـا اللهـم إلى صـورة ترجمة بعـض النصـوص باللغـة الفرنسـية فقـط.

(ومـضى الدكتـور رانـا إحسـان الهـي في الـكلام مقدمـا نفسـه للقـراء بأنـه كبـير علـماء اللغـات القديمـة وناقـدًا علـماء الغـرب وكبار المشـتشرقين).

ثـم قـال: وأخـيرًا يسـعدنا أن نسـاعد إخواننـا وزملاءنـا الباحثـين عـن الآثـار القيمـة في قـراءة النصـوص أو النقـود الحميريـة أو السـبئية أو النجديـة أو الحجريـة إذا تعـذر عليهـم قـراءة بعضهـا أو كلهـا. وقـد مـنَّ الله علينـا بمعرفـة قـراءة هـذه النصـوص القديمـة، كـما وفقنـا الله بالعثـور على زلات سـاوجناك (Saviignac) وويسـتن و(Beeston) وجـام (Jamme).

فلله الحمد.

جدة الدكتور - رانا إحسان الهي

الحجر بها بيوت لا قبور:

تحت هذا العنوان نشرت مجلة (المنهل) في شهر صفر عام ١٣٩١ مقالًا قيمًا يدل على عمق ثقافة كاتبه الدكتور رانا إحسان إلهي وغزارة معرفته بالآثار.

وأحب أن أشير إلى كلمة وردت في المقال وهي جبل (الأثالث) والحقيقة هي (الأثالب) بالباء لا الثاء، فقد ذكر الإصطخري (المسالك ط د ى غوية ١٩)» إن الحجر محلة صغيرة قليلة السكان وهي من وادي القرى على مرحلة في وسط صخور منعزلة تعرف بالأثالث وفيها ديار ثمود».

وثمود هم الذين أخضعهم الملك الآشوري سرجون الثاني، وهم أيضًا (الثموديون الذين يذكرهم بطليموس في جغرافيته (٦- ٧- ٢١)، ومعبدهم الرئيسي في الغوافة يقع في النهاية الجنوبية لإقليم حِسْمى.

ويذكر الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) الإقليم الثالث الجزء الخامس « إن بالحجر بيوتا منقورة في الصخر، وأهل الصخر وتلك النواحي يسمونها الأثالب وبها كانت ديار ثمود».

ويطلق اسم الأثالب على الصخور الموجودة على مقربة من الحجر، وهو يحرف كلمة الأثالب كما يظهر بوضوح في

شرحه إذ يقول: الأثالب جبل من أرض ثمود عند الحجر.

ويقول :رانا إحسان أن إجرا (Egra)، هي الحجر الشرقية كما ورد في جغرافية بطليموس (٦/ ٧: ٢٩) مدينة تقع بين سواكا (Suake) و(Salma)، وسواكا هي تلك الأطلال الموجودة بالواحة التي تسمى حاليًا (واحة الشقوق) بين ضحكان وأم الجيش. وسلمى هي المعروفة حاليًا بأبي سلامة، وتقع إلى الغرب من الحجر كذلك.

أما الحجر الحديثة فتسمى (Hagra) وكانت محطة هامة جدًا للطريق التجاري القديم الموصل بين حضرموت واليمن وبين سوريا ومصر.

والفرضة ضحكان؛ وضحكان وهي الفرضة القريبة من ضبا كان يخرج فرع من الطريق التجاري القديم متوجهًا إلى الحجر، وفي طريقه إلى بابل سائرًا بمحاذاة الحافة الجنوبية لصحراء النفود.

وبليني على حق حين ذكر أن التجارة كانت تتركز في مدينة الحجر وخاصة تجارة البخور التي تستورد من ظفار وربما من الشحر كذلك.

ويقول اسطفن البيزنطي: أن (Egra) مدينة على خليج إيله ويقول موسل أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة براغ:

أن هجرا (Hagra) يجب أن تكون مدينة لحجر التي كان اللحيانيون يقيمون فيها والتي كانت في منتصف القرن الأول الميلادي ملكًا لملوك النبطيين.

ويعترض الدكتور رانا إحسان رأي علماء الآثار في أن الكهوف الحجرية والصخور في مدائن صالح هي مقابر فهو يرى أنها مساكن. ولم يأتِ الدكتور بدليل قاطع يمكن الاستناد إليه والاعتماد عليه. ولو أن الدكتور ألقى نظرةً على بعض مقابر قدماء المصريين بغرب هرم سقارة، لوجد أن علماء الآثار على حق فيما ذهبوا إليه، فإن مقابر مدائن صالح تشبه إلى حد كبير المقابر الموجودة جنوبي الجيزة على مقربة من هرم سقارة، والفرق شيء واحد هو أن بعض مقابر بعض المصريين القدامى محفورة في صخر في أعماق الأرض، بعيدة عن سطح الأرض بينما قبور مدائن صالح منحوتة في صخور على سطح الأرض.

أما الرفوف التي شاهدها الدكتور رانا إحسان داخل الكهوف فربما أنها كانت للأموات فالمقابر الرومانية التي اكتشفت قرب المنتزه في الإسكندرية لها رفوف تشبه إلى حد كبير رفوف كهوف مدائن صالح.

أما الطائر المرسوم على مداخل الكهوف فرأى الدكتور أنه الققنس، أو السبندل، وهو الطائر الذي تقول عنه الأساطير: إنه

إذا هرم ألقى نفسه في الجمر ليعود إلى شبابه، وهذا رمز للخلود.

إنه رأي جميل، ويحتمل أن يكون دليلاً على أن أولئك القوم كانوا يؤمنون بوجود حياة أخرى أو دليلاً على إيمانهم بالتناسخ.

أخيرًا.. لعل الدكتور رانا إحسان يستمر في بحوثه الأثرية؛ فإن كثيرًا من الناس يجدون متعة في قراءة هذا الجانب من التراث العلمي، ولقد قمت منذ عدة سنوات برحلات في مناطق الخطرة في الجنوب العربي حيث تتركز آثار سبأ وحِمير ومعين وقتبان واكتشفت بعد جهود جبارة استنفدت ما لدى من نقود، اكتشفت مقبرةً قديمة في شكع على مقربة من اليمن الشمالي وعثرت بداخل المقبرة على أوان من البرونز والخزف ومن الزجاج الملون، كما عثرت على قطعتين من العملة الفضية التي كانت متداولة في عصر ما قبل الإسلام. وقد شاهدها الأستاذ عبد القدوس الأنصاري في منزلي فأعجب بها كل الإعجاب.

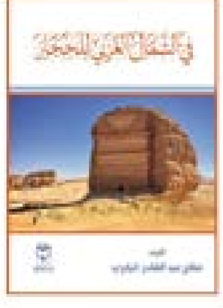
ومنطقة شكع غنية بالآثار وقد اضطررت للانسحاب من هذه المنطقة؛ تحت ظروف قاهرة. ربيع الأول عام ١٣٩١.

صلاح البكري

الإذاعة العربية السعودية – جدة

الفهرس

الموضوع **الصفحة**



ساد الاعتقاد بتركز الآثار القديمة في الجنوب الغربي لجزيرة العرب، والحقيقة أن آثارًا كثيرة منتشرة في الأراضي السعودية، غير أن كثيرًا منها فككتها عوامل التعرية وأصبحت أكوامًا من الأحجار والرمال.

ولا تزال هناك بيوت منحوتة في الجبال، وأحواض لحفظ الماء منقورة في الصخور، حيث كانت المناطق الشمالية الغربية للحجاز موطنًا للأنباط ولحيان وقوم شعيب وأصحاب الأيكة، وعاد البائدة وثمود، معظم هذه القبائل تركت خلفها آثارًا ومعالم، وهذه الآثار وإن كانت أقل من آثار الجنوب العربي، إلا أنها تلقي ضوءًا على تاريخ عرب الشمال الذين أثبتوا وجودهم بين الشعوب في العصور الواغلة في القدم. وفي هذا الكتاب يلقي المؤرخ العلامة صلاح البكري الضوء على ذلك كله.



صلاح عبد القادر البكري (١٩١٢م - ١٩٩٣م)، ولد في إندونيسيا، وتلقى تعليمه الابتدائي بجاكرتا . ثم سافر إلى مصر عام ١٩٣٠م، ودرس مرحلتي الكفاءة والثانوية، ثم التحق بجامعة القاهرة، وتخرج في كلية الآداب قسم التاريخ عام ١٩٣٨م، ثم التحق بـ(معهد التربية العالي) وحصل على دبلوم التربية وعلم النفس عام ١٩٤٠م، وعين مدرسًا بـ(مدرسة القباري) بالإسكندرية، ثم نقل إلى (مدرسة محمد علي) بالقاهرة. وفي عام ١٩٥٠م ترك التدريس وسافر إلى هولندا واشتغل مذيعًا بالقسم العربي بإذاعة هولندا. وفي عام ١٩٥٢ انتدب للتدريس بـ(مدرسة الفلاح الثانوية) في مكة المكرمة. وفي عام ١٩٥٧م اشتغل مديرًا لقسم الأحاديث بالإذاعة العربية السعودية بجدة، ثم مديرًا لإذاعة (نداء الإسلام)، ثم مراقبًا دينيًا لهذه الإذاعة. وهو من المؤرخين القلائل الذين اهتموا بجغرافية الوطن العربي وتاريخه خاصة الجنوب العربي، صدرت له العديد من الكتب منها:

1. تاريخ حضرموت السياسي (الجزء الأول والثاني)
2. في جنوب الجزيرة العربية
3. حضرموت وعدن وإمارات الجنوب العربي
4. الجنوب العربي قديمًا وحديثًا
5. في شرق اليمن يافع
6. اتحاد الجنوب العربي
7. جغرافية البلاد العربية
8. في الشمال الغربي للحجاز
9. تاريخ الإرشاد في إندونيسيا
10. حضرموت بلاد الأحقاف
11. الاتجاهات الجديدة في سياسة التعليم
12. القرآن وبناء الإنسان



دار الوفاق الحديثة للنشر والتوزيع
واتس آب: +2001008170225